الشرق والغرب

المحتويات

مقدمة ٧

تمهيد ٩

١- المدنية الحديثة ٢١

٢- الاستبداد والديمقراطية ٣٣

٣- الثقافة ٣٩

٤- الحظ والقدر في الشرق والسبب والمسبب في الغرب ٤٥

٥- الحياة الاجتماعية ٤٩

٦- الحياة الاقتصادية في الشرق والغرب ٥٧

٧- الفرد والأسرة ٦٧

٨- المرأة ٧١

٩- التقليد والابتكار ٧٥

١٠- القيم الأخلاقية في الشرق والغرب ٨١

١١- مادية الغرب وروحانية الشرق ٨٧

١٢- موقف الشرق من الغرب ٩٣

خاتمة ١٠١

مقدمة

في عام ١٩٤٧ دُعيت للاشتراك في مؤتمر المائدة المستديرة الذي عقد في لندن لبحث مشكلة فلسطين، وكان لزيارتي لأوروبا ذلك العام أثر كبير في تحديد مشاعري نحو الغرب، وأخذت أشك في صحة الاعتقاد السائد بتقدم الغرب على الشرق في مضمار الحضارة.

لمست نوعًا من الأخلاق والعادات والتقاليد يخالف ما لمسته في بلادنا، وشاهدت منظمات وصناعة وإنتاجًا لا عهد لبلادنا به، ومنذ ذلك الوقت بدأت تتزاحم في رأسي مئات من الأسئلة التي أردت أن أدرسها لأجيب لنفسي عنها وللآخرين.

فمثلًا: هل الحضارة الأوروبية نتيجة لروح الأوروبيين؟ أو أن روح الأوروبيين هي نتاج الحضارة الأوروبية؟ أو بمعنى آخر: هل الصناعة مثلًا — وهي من أهم دعائم الحضارة الأوروبية — كانت نتيجة للرغبة في مقاومة الطبيعة، تلك الرغبة التي يتميز بها الأوروبيون، أم أن روح مقاومة الطبيعة والتعالي عليها نشأت نتيجة لقيام الصناعة؟ وهل قيام الصناعة بهذا الشكل واصطباغها بالصبغة الأوتوماتيكية كان نتيجة لأوتوماتيكية الأوروبيين، أو أن هذه الأوتوماتيكية كانت نتيجة لا مفر منها لقيام الصناعة وانتشارها على هذا النحو الواسع؟ وهل كان اتجاه الصناعة وغير الصناعة نحو الإنتاج الحربي وانتشار الحروب وروح البغضاء بين الدول، هل كان هذا نتيجة للحالة الاقتصادية والسياسية التي تسببت في قيامها الصناعة الحديثة والعلم الحديث، أم أن هذا الاتجاه الحربي وهذه الحالة الاقتصادية والسياسية نتيجة لروح حب الكفاح التي يتميز بها الأوروبيون ونتيجة للأحقاد التي نشئوا عليها؟

وهذه المبادئ السياسية التي حددتها أوروبا ورسمت صورتها، وهذه النظم الاقتصادية والاجتماعية من ديكتاتورية وديمقراطية وشيوعية، هل هي نتيجة التعليم

الحديث والصناعة الحديثة، وكل حديث أتت به الحضارة الأوروبية؟ أم أنها لا علاقة لها بالعلم ولا بالصناعة وإنما جاءت بهذه الصورة لأنها هي صورة الأوروبيين أنفسهم؟

ثم هذه العلاقة بين الرجل الأوروبي والمرأة الأوروبية، وبينهما وبين أولادهما، وهذه العلاقة بين صاحب العمل والعامل، وبين الحاكم والمحكومين، هل كانت هذه العلاقات شيئًا جديدًا على أوروبا أتت به نظم الحياة الجديدة ودعا إليه فلاسفتها ومفكروها الحديثون حتى تحقق على يد المرأة والأولاد أو على يد النقابات والأحزاب؟ أم أنها علاقات قديمة أقامتها ضرورة الطبيعة في أوروبا فكانت قسوة المناخ وبرودة الجو وطبيعة الأرض الصلبة الفقيرة هي التي أدت إلى هذا النوع من التعاون بين الرجل والمرأة والأولاد، وبين الحاكم والمحكوم، ثم أدى هذا النوع من التعاون إلى هذه العلاقات التي نراها الآن بينهم؟

هذه أسئلة على جانب كبير من الأهمية، والبحث فيها والإجابة عليها يساعدنا كثيرًا في الإجابة على أسئلة تتعلق بحضارة الشرق الجديدة:

أولًا: هذه الحياة الجديدة وهذا النوع من التفكير والأنظمة التي جاءت بها الحضارة الأوروبية، إلى أي حد تتصل بتقدم الإنسانية؟

ثانيًا: هذه الأنظمة في الحضارة الأوروبية المتصلة بتقدم الإنسانية، إلى أي حد ترتبط بخصائص الغربيين وروحهم؟ وإلى أي حد يرتبط بخصائص الشرقيين وروحهم؟

ثالثًا: هل يستطيع الشرق أن يقوم بحضارته الجديدة من غير أن يتقيد مطلقًا بما وصل إليه الغرب؟

أم هل من الضروري عليه أن يكمل من حيث انتهى الغرب؟ وهل يستطيع ذلك؟

هذه الأسئلة جميعها تضاربت في ذهني فترة طويلة من الزمن حتى رأيت أن أضع هذا الكتاب الصغير، محاولًا الإجابة عنها، والمساهمة في إنارة الطريق الذي يسير فيه الشرق الآن نحو حضارة جديدة.

والله الموفق.

تمهيد

ما الشرق وما الغرب؟

شاع على الألسنة مقابلة الشرق بالغرب، فيقولون مثلًا الشرق شرق والغرب غرب، وقديمًا استخدموا هاتين الكلمتين متقابلتين، فالمؤرخون يقولون تاريخ الشرق وتاريخ الغرب، والفلاسفة يقولون مثلًا: إنه قد اجتمع في الإسكندرية إلهام الشرق ومادية الغرب، إلى غير ذلك من مختلف التعابير — فهل هناك حقيقة مدلول معين للشرق، ومدلول معين للغرب؟

الواقع أن الشرق والغرب من الكلمات العامة التي إذا أريد تحليلها عزَّت على التحديد، فباقي الكلمات العامة كحرية وجمال وعدل وديمقراطية، كلها يستعملها الناس كثيرًا، فإذا أريد تحديدها صعب على من أراد ذلك، فهل كلمتا الشرق والغرب يمكن تحديدها بالرجوع إلى الجغرافيا أو هما نوعان من المزاج والخصائص، أكثر منهما جغرافيين أو غير ذلك؟

من الباحثين من أرجع الفرق بينهما إلى المعنى الجغرافي، فحددوا الشرق بأنه ما كان شرقي البحر الأبيض المتوسط وامتداده شمالًا وجنوبًا، فيشمل ذلك الهند والصين واليابان والاتحاد السوفيتي وإيران والعالم العربي بأجمعه بما فيه مصر، كما يشمل أستراليا، ويشمل الغرب أوروبا وأمريكا، ولكن هذا التحديد الجغرافي عليه اعتراضات كثيرة، أهمها أن في أوروبا ما يُعد شرقيًّا كجزء كبير من تركيا، وفي الشرق ما يعد غربيًّا كأفريقيا الجنوبية وأستراليا؛ ولذلك ذهب بعضهم إلى عدم الاتجاه إلى

التحديد الجغرافي، واتجهوا إلى التحديد بالخصائص. فالغرب يختص بالتقدم الميكانيكي، والحركات الصناعية والديمقراطية، وتلوين أدبه وفنه بلون خاص — لون عملي أكثر منه نظريًّا — وتقدير النساء ومنحهن كثيرًا من الحرية، والشرق يتصف بالتواكل والخضوع للاستبداد، والمساومة في المعاملة، والتقليل من حريات النساء، وكثرة الاعتقاد بالخرافات ونحو ذلك، وحينئذ إذا جرينا على هذا لم يعد للحدود الجغرافية قيمة، فقد نحكم على اليابانيين بأنهم تغرَّبوا؛ أي اتصفوا بالصفات الغربية، كما نحكم على بعض الأوروبيين بأنهم تشرَّقوا؛ أي اتصفوا بالصفات الشرقية. وعلى هذا تكون الشرقية والغربية صفات لا حدودًا جغرافية، وبناء على ذلك إذا قلنا المدنية الغربية فليس معناها المدنية التي أتى بها الغرب مقابلة للمدنية الشرقية؛ أي المدنية التي أتى بها الشرق، وإنما نعني بالمدنية الغربية ميزات وخصائص، تتسم بها المدنية الغربية.

وقد أنكر غاندي وبعض الباحثين هذه التسمية إطلاقًا، تسمية الشرق والغرب، وقال: الحق إن هناك جمعيات أو مجموعات من الناس لها خصائص معينة، ربما عُدت خمسًا: أوروبا وأمريكا والجمعية المسيحية الأرثوذكسية، والجمعية الإسلامية، والجمعية الهندوكية، والشرق، وهذه الجمعيات الخمس؛ اثنتان منها في الغرب الجغرافي وثلاث في الشرق، والفروق بين هذه الجمعيات كبيرة لا تستند على شرق ولا غرب، فالفرق بين المسلمين والهندوكيين وكلاهما شرقي، كالفرق بين المسلمين والمسيحية الأرثوذكسية، وإحداهما شرقية والأخرى غربية.

وبعضهم يميل إلى اعتماد هذا التقسيم على الزمن لا على التقسيم الجغرافي ولا على الطابع والمزاج، فالغرب يدل على معنى المدنية الحديثة بأساليبها الخاصة، كالاعتماد على العلم في كل مرفق من مرافق الحياة من تربية وزراعة وتجارة واقتصاد ونحو ذلك، ويقابل هذه المدنيات غير الحديثة من مدنية مصرية ورومانية ويونانية وعربية وغير ذلك، فالعنصر الأساسي في التقسيم هو الزمن.

ونحن أميَل إلى اعتماد التقسيم على الطابع والمزاج؛ فالمدنية الحديثة طابع ومزاج متدرجة في سلم الرقي، فمن انطبع بالطابع الحديث عُد مُمدنًا مدنية حديثة حيثما كان مسكنه في الشرق أو في الغرب، ومن لم ينطبع بطابعها عُد شرقيًّا؛ سواء كان في الشرق أو في الغرب، ونحن نجد الخلاف الكبير بين أفراد الأمة الواحدة فقد يكون فيها أفراد يعبدون كل ما هو شرقي قديم، وآخرون يعبدون كل ما هو غربي جديد، وآخرون لا يعبدون هذا أو ذاك وإنما هم يُعملون عقولهم، ويرسمون لأنفسهم خطة للتقدم سواء كانت هذه الخطة شرقية أو غربية.

ويرى قوم آخرون أن المسألة ليست مسألة شرق وغرب، وأن العالم كله على سعته لا يتحمل إلا مدنية واحدة، وإنه إذا جاءت مدنية نُسب إليها العالم كله على حسب تقدمه وتأخره؛ ففي الطليعة المتمدنون بها وفي نهايتها المتخلفون عنها، وسائر الناس طبقات بين ذلك.

هكذا الشأن في تاريخ مدنية قدماء المصريين والمدنية اليونانية والرومانية والإسلامية، فلما كانت كل مدنية من هذه المدنيات أرقى من غيرها في زمنها، سادت العالم وقلَّدها الناس على حسب استعدادهم، واليوم سادت المدنية الحديثة فعمت العالم كله إما طوعًا وإما كرهًا، فليست هناك مدنيتان متناقضتان: إحداهما شرقية والأخرى غربية، بل مدنية واحدة تعم العالم كله؛ غاية الأمر أن بعض الأمم يستفيد من هذه المدنية الحديثة أكثر من غيره، وبعبارة أوضح ليس هناك سُلمان مختلفان، بل هناك سلم واحد ذو درجات مختلفة وقف أصحاب المدنية الحديثة في أعلى السلم ووقفت الأمم الأخرى على درجات من السلم بحسب كثرة اقتباسهم منها أو قِلته، وقد تنهض أمة شرقية نهضة غربية فترتقي درجات في السلم كما فعلت اليابان وتركيا، وهناك أمم تقف على أول درجة في السلم، وبين ذلك أمم مختلفة، والمسألة كلها تابعة لظروف كل أمة، ومقدار استعدادها لارتقاء السلم الغربي، فالذين يقولون الشرق والغرب مخطئون، وخير لهم ألا يقيسوا المسألة بعامل جغرافي بل يقيسونها بمقدار الاستعداد.

على أن المدنية الغربية كلها لم تبلغ في جميع نواحيها مبلغ الكمال، بل هي معيبة بعيوب تجعلها ليست المثل الأعلى للمدنيات، كما سنبين ذلك فيما بعد، وأنه قد يخلفها مدنية ليست متصفة بهذه العيوب تكون أرقى منها، فما فيها من مادية مفرطة، وما تؤدي إليه من تطاحن وحروب مهلكة يجعلها ليست المدنية التي ينشدها العالم، بل إن الأمم التي تعدها المدنية الحديثة متأخرة قد يكون فيها من المزايا ما ليس عند المتقدمين في المدنية، فبعض الأمم التي تُعد متأخرة عندها من السماحة ومن الكرم ومن النجدة ما يفضل أهل المدنية الحديثة.

وقد اختلف الباحثون في الإجابة على السؤال الآتي: هل نشر المدنية الحديثة بين الأمم الشرقية، أو بعبارة أدق بين الأمم الأقل مدنية نعمة عليها أو نقمة؟ فبعضهم يرى أنها نعمة، فهي تزيد من إنتاجهم، وتنظم حياتهم، وتعلمهم المطالبة بحقوقهم ونحو ذلك، وبعضهم يرى أنها لعنة أو أنها نقمة؛ لأنها تجعلهم يضطربون ويحتارون بين سلوك قديم وسلوك جديد وأنهم يشْقُون بها لأن ظروفهم غير ظروف الأوروبيين.

خذ مثلًا البرلمان، فقد نجح في إنجلترا، ولكن لما نُقل إلى بعض الأمم الشرقية، أوجد فيها الشقاق والمحسوبية والبطء في الإصلاحات.

والحق أن اتصال الشرق بالمدنية الحديثة، وأخذه عنها واجب ضروري في نظرنا، غاية الأمر أن في نشرها الحالي عيبين؛ العيب الأول: أن المدنية الحديثة تُنقل كما هي من غير تعديل أو تمييز بين ما ينفع وبين ما لا ينفع، ولكل أمة ظروفها؛ فقد يكون الأمر نافعًا في إنجلترا، وهو إذا نُقل بحذافيره إلى الهند لا ينفعها، وقد يكون نوع من العادة أو السلوك نافعًا في بلاد باردة، وليس نافعًا في بلاد حارة وهكذا. والعيب الثاني: أنه مما يؤسف له أن المدنية الحديثة دخلت الأمم الشرقية بالحديد والنار لا بحسن التفاهم؛ مما جعل هذه الأمم تنظر إلى رجال المدنية الحديثة نظرًا شزرًا، ولو أنها دخلت بحسن التفاهم ولم ينظر الغربيون إلى غيرهم نظرة استعداء واستغلال لكان تقبل المدنية الحديثة أسهل وألطف. ومما يؤسف له أيضًا أن العدد المحدود من قادة السياسة لم يغيروا آراءهم الاستعمارية مع ظهور فسادها؛ ولذلك لم تذهب حدة العداء بين الطرفين، ولو وفق الغرب إلى أن يشعر الأمم الأخرى بحسن نيته، وعدم استغلاله، وأخذه بيده كما يأخذ الأخ الكبير بيد أخيه الصغير؛ لنجحت المدنية الحديثة أكثر مما تنجح الآن.

لقد نجح العرب في نشر المدنية الإسلامية في الشرق الأوسط؛ لأنهم دخلوه ناشرين لمبادئهم، آخذين بيد الضعفاء منهم ولم ينجحوا في نشر مدنيتهم في الهند لأنهم دخلوها قاصدين الاستغلال، وذلك بعد أن انتابهم الضعف وأصابهم مرض الجشع، وكان حال أوروبا مع الشرق كحال محمود الفاتح مع الهند.

وهنا يعترضنا سؤال آخر في غاية من الدقة والصعوبة وهو: بماذا تُعد أمة أرقى من أمة؟ وما الذي يجعل أهل المدنية الحديثة أرقى من غيرهم، أو بعبارة أخرى ما هو مقياس الرقي؟ إن كثرة الآلات والمخترعات وحدها لا تصح قياسًا، فلو أننا قارنًّا بين بيت مُلِيء بالمخترعات الحديثة من الراديو والتليفون والمكيف الهوائي وآلات للطبخ والكنس، ولكن أهله متنازعون متكالبون على المادة أشقياء بماديتهم وأنانيتهم، وبين بيت آخر ليس فيه آلة من الآلات الحديثة ولكن أهله وادعون مطمئنون مرتاحو البال، لعُد البيت الثاني من غير شك أسعد وأرقى. ولو أننا خيَّرنا سيدة أوروبية بين بيت فيه كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ولكن أولادها يؤخذون من حين إلى حين إلى الحروب تُستنزف دمائهم وتلقيهم صرعى، وبين بيت آخر ليس فيه شيء من الآلات، ولكن أولادها لا تحصدهم الحرب، ولا

ينزف دمائهم القتال لاختارت البيت الثاني. والنتيجة من هذا كله ما ذكرنا من أن مقياس الرقي ليس الآلات والمخترعات. فما هو مقياس الرقي إذن ...؟

قد أجاب بعضهم عن هذا السؤال بأنه كلما كانت الأمة أقدر على استخدام الطبيعة، ومعرفة قوانينها واستخدام هذه القوانين في مصالحها واستغلالها أقوى استغلال كانت أرقى، ولكن بعض الهنود يعترضون على الأمم الغربية بنظرتهم إلى الطبيعة وقولهم: إنهم يقهرونها ويستغلونها في مصلحتهم، وكان الأولى أن يصادقوا الطبيعة حتى تفضي إليهم بأسرارها. والموقف بين النظرتين يختلف، فمحاربة الطبيعة وقسرها على البوح بسرها غير مصادقتها لتهدي إلى من يصادقها بعض أسرارها.

على كل حال ربما كان استخدام القوانين الطبيعية في الحياة اليومية خير مقياس للرقي، ومعنى هذا أن يطبق على نواحي الحياة ومرافقها كلها، فالحيوان أرقى من النبات لقدرته الطبيعية على الأشياء أكثر مما يقدر النبات، من حركة وبحث على الغذاء ونحو ذلك، والإنسان أرقى من سائر الحيوان لأنه فهم من الطبيعة ما لم يفهمه الحيوان واستخدمه أكثر من استخدامه.

وعلى هذا نرى أن المدنية الحديثة مقصرة تقصيرًا كبيرًا إزاء الأمم الأقل مدنية، فهم لم يستطيعوا في استعمارهم أن يفهموا نفوس الأمم المستعمرة، ويجاروها ويسايروها ويرقوها، وهذا بعينه جهل ببعض قوانين الطبيعة، فسوء المعاملة والإفراط في الأنانية والرغبة الشديدة في الاستغلال كل ذلك يسبب كراهية المستعمر وعدم إقباله على المدنية الحديثة إقبالًا تامًّا، ويعوق النزعة الإنسانية العالية في أن من الواجب على المتقدم أن يأخذ بيد المتأخر؛ غاية الأمر أن استغلال القوى الطبيعية ليس كل مقياس الرقي، بل يجب أن يضاف إليه أيضًا السمو الروحي. فالمدنية الغربية تشقى الآن بسبب عدم بلوغها هذا السمو.

ويظن البعض أن الحضارات أتت يكمل بعضها بعضًا، فكل حضارة تأتي تأخذ مزايا ما قبلها وتتجنب نقائصها. وهكذا كان موقف الحضارة اليونانية بالنسبة للحضارة المصرية، والرومانية بالنسبة لليونانية، والعربية بالنسبة لليونانية والرومانية، ولكني أرى أنها نظرية ترضي غرور بعض الأوروبيين؛ إذ يرون أن حضارتهم أرقى الحضارات؛ لأنها استفادت من كل ما قبلها من الحضارات وتجنبت عيوبها، والواقع في نظري أن الحضارة إنما تأتي لتقدم للإنسان نوعًا جديدًا من الأشياء يكون هو في حاجة إليه.

لقد جاءت الحضارة المصرية والإنسان متوحش يعيش عيشة بدائية، فلما استقر بوادي النيل وعاش عيشة مطمئنة كان في حاجة إلى تنظيم القوانين وإلى مرشد يشرح

له وسائل الحياة. ولأول مرة قدمت مصر للعالم حضارة. ثم جاءت الحضارة اليونانية تقدم للعالم فنونًا وعلومًا وفلسفات جديدة لم يكن يعرفها بعد أن تعلَّم كيف يستقر في المدن، ووجد عنده من الوقت ما يصرفه في التفكير، فاستطاعت الحضارة اليونانية أن تقدم ذلك كله نتيجة لبيئتها الطبيعية والاجتماعية، فتقدم العالم بذلك خطوة أو خطوات ولكن سرعان ما دبت إليها الشيخوخة وظهر أن الإنسان يحتاج إلى من يقدم له نوعًا آخر من الحضارة، فكانت الحضارة العربية، وأخيرًا جاءت الحضارة الأوروبية الحديثة لتقدم للإنسان بعضًا من احتياجاته المادية والمعنوية، فكان العلم التطبيقي، وكانت الصناعات، وكان التقدم في العلوم على اختلاف أنواعها.

والحضارتان اليونانية والأوروبية نتيجة لحياة اجتماعية غربية، والحضارة المصرية والعربية نتيجة لحياة اجتماعية شرقية؛ فكل منها يقدم للإنسان ما هو في حاجة إليه وليست كلها كهرم؛ بعضها فوق بعض.

من هذا كله نستنتج أن الشرق سبق الغرب في حضارته، وأن حضارات الشرق عاشت أكثر من حضارات الغرب. فالحضارة المصرية عاشت أكثر من أربعة آلاف عام مع أن الحضارة اليونانية لم تعِش أكثر من ألف عام، وعاشت الحضارة العربية أكثر من ألف ومائتي عام، بينما الحضارة الغربية لم تعِش أكثر من سبعمائة عام، وقد بدأ انحلالها منذ بدء القرن العشرين؛ ولذلك نستطيع أن نقول إن مدة تحضر الشرق أطول من مدة تحضر الغرب. يضاف إلى ذلك أن الحضارات الشرقية كانت متجهة نحو الأديان والأخلاق، وتنظيم علاقات الجماعات والشعوب تنظيمًا يسوده السلام، بينما كانت الحضارة الغربية متجهة نحو التوسع في الرفاهية المادية، مما سبب التوسع في ولحراب ووسائلها، فحروب بين الغرب والشرق غرضها الاستغلال وهي تشنها باسم الإنسانية، وباسم واجبات الرجل الأبيض، وحروب بينها وبين بعضها من الأمم الغربية تشنها باسم الحرية والمحافظة على الديمقراطية، وحروب بين الفقراء والأغنياء يسببها الحقد والطمع، تشَن باسم الاشتراكية والشيوعية، وكلها تفيد أن الأمم الغربية لم تبلغ من الحضارة الصحيحة مبلغًا كبيرًا.

ومن هذا كله نستنتج ما قلناه من أن الحضارات ليست مكملة لبعضها، ونستطيع أن نقول إن الشرق إذا قدر له أن يبني استطاع أن يقدم للعالم ما ينقص الغرب من روحانيات وأديان وتأملات، ولكن هذا لن يأتي إلا إذا استفاد من الغرب نظم إنتاجه وروحه العلمية.

إني لآمل الخير للشرق، وأرى بعض علامات تدل على بدء وعيه وولادته من جديد، كما أرى بدء الانحلال في الغرب لانحرافه عن مبادئه.

فقد أصيب الغرب بالزهو، واعتقاده أنه يملك زمام كل شيء، وتكبر على كل من لم يكن من جنسه من الملونين، وجعل التاريخ محوره تاريخ أوروبا قديمًا ومتوسطًا وحديثًا، ويكاد يهمل تاريخ غيره من الصين والهند والفرس والعرب والعجيب أن كثيرًا من الشرقيين وقعوا في مثل هذا الخطأ، فقدَّسوا كل ما يأتي من الغرب، واحتقروا كل ما يأتي من بلادهم، والخوف كل الخوف إن تنقل إلى الشرق رذائل الغرب التي عملت في انحلاله، فيصاب هو أيضًا في بدء نهضته بما يصاب به الغرب.

إني أرى النشاط والحيوية بدآ في الشرق، وبدأ الأمل يساوره بينما بدأ اليأس يساور الغرب، وبدأ الشرق يتطلع إلى شيء جديد لا هو شرقي محض ولا هو غربي محض، بل فيه مزايا كل منهما. بينما تسود الغرب فكرة التشاؤم وعدم الإيمان بالمثل العليا، بل عدم الإيمان بأي شيء، وأصبحت الوسائل عنده غايات.

هل أدلُّ على فشلها من اختراعها أسباب انحلالها وعلى رأسها القنبلة الهيدروجينية؟ الحق أن نهرو أوسع أفقًا — فيما أعتقد — من تشرشل، والروح المعنوية لِفرق الفدائيين أعلى من الروح المعنوية للقوات الإنجليزية، التي لا تعتمد إلا على السلاح.

إن على زعماء الشرق أن يتخيروا من المدنية الغربية خيرها، وينبذوا شرها، من المدنية القديمة خيرها إن كان ذلك في الإمكان، ونتيجة ذلك مدنية لا شرقية محضة ولا غربية محضة.

نعم، وجد من المصلحين من أراد أن يأخذ المدنية الغربية بحذافيرها، لا فرق عنده بين صناعة وفن وابتكار، وبين فضائلها ورذائلها، ورأى أن المدنية الحديثة إما أن تؤخذ كلها أو تُترك كلها، كما فعل مصطفى كمال في الدولة العثمانية؛ لأنه رأى أن بعض من تقدموه حاولوا الأخذ ببعض مبادئ المدنية الحديثة وترك بعضها ففشلوا، كالسلطان عبد الحميد، فقد أراد أن ينقل من أوروبا النظم العسكرية، ولكنه لم يشأ أن ينقل مبادئ الحرية ففشل فشلًا ذريعًا، أراد مصطفى كمال أن يتجنب هذا الفشل بنقل المدنية كلها من نظم عسكرية ومخترعات وقوانين ونظم اجتماعية حتى القبعة واللغة اللاتينية.

وقد أدرك هذا المعنى رجل آخر بطريقة أخرى، وهو غاندي، إذ أراد أن يمنع عن بلاده كل المدنية الحديثة ودعا شعبه أن يغزل بيده؛ حتى لا يرتبط الشعب الهندي بالمصانع الإنجليزية، وحتى يبعد الهنود عما في الحضارة الغربية من لهو ومجون؛ لأن بعضها يسلم إلى بعض، ولكن تيار المدنية الغربية جرَّف تعاليم غاندي وعادت البلاد تأخذ عن الغرب.

نعم إن بعض من حاولوا المزج بين الحديث والقديم قد فشلوا كما فشل السلطان عبد الحميد، ولكن يظهر عندنا أن سبب الفشل هو جمع المصلحين بين عناصر متباينة لا انسجام بينها، كالجامعة العربية تسير في بعض تصرفاتها على مبدأ القومية وهو مبدأ المدنية الغربية، وأحيانًا على مبدأ العروبة وهو مبدأ التكتل، وأحيانًا على مبدأ الاتحاد في الدين وهو مبدأ الإسلام، وتضطرب بين هذه النزعات الثلاث فتمنى بالفشل، وكحال المزارعين في الشرق يسير بعضهم على مبدأ الآلات الحديثة، وما زال هناك اعتقاد بالخرافات واتكال على القدر.

إن نجاح الشرق يأتي عندما تتكون له شخصية واضحة يعرف من هو، وماذا يريد، وإلى أين يسير، وهنا يكون الأخذ والاختيار مبنيًّا على أساس ما يناسب هذه الشخصية وما يصلح لها ويقويها.

ولم يكن فرق بين المدنية الغربية وغيرها قبل القرن السادس عشر الميلادي، فلم نكن نحس هذا الفرق عند انتشار المدنية الرومانية، إذ كانت تحكم القسطنطينية وما حولها والإسكندرية وما حولها ولم يكن يقال شرق ولا غرب، وكذلك لم يكن لهذا المعنى وجود في الحروب الصليبية بين المسلمين والنصارى، بل أحس كل جانب أن كل فريق متميز بدينه وبمزاياه، وربما أحس النصارى إذ ذاك بتفوق المسلمين عليهم كما أحس نصارى الأندلس وإيطاليا وفرنسا بتفوق مسلمي الأندلس عليهم؛ ولذلك كانت جامعات قرطبة مقصدًا للأوروبيين من مختلف الجهات يتعلمون فيها. فلما جاء القرن السادس عشر نهضت في أوروبا الحركات العلمية، واستخدمت طريقة المشاهدة والاختبار والشك والتجربة، ونادى بيكون وديكارت، ومن نحا نحوهما، بالطريقة الجديدة في التفكير، ووجد على أثرها اكتشافات هارفي ونيوتن وبويل، ونتج عن هذه الأبحاث العلمية والطريقة التجريبية نهضة في الصناعات. وسمعنا منذ ذلك الحين كلمة المدنية الغربية، وأكبر أساس فيها الصناعة، فإذا قيل المدنية الغربية فأول ما يصدم الذهن دلالتها على التقدم الصناعي، وهذا التقدم الصناعي أسلم إلى صنع الآلات الحربية المدمرة التي يجهلها الشرق؛ وبذلك أخضع الشرق لحكمه، ولو لم يكن هذا التقدم الصناعي، أو كان الشرق وُفق ببعض أبحاثه العلمية ورجاله العلميين إلى هذه الصناعات بعينها أو مثلها ما كانت المدنية الحديثة تدل على معنى، بل ما استُعملت كلمة الشرق والغرب، وما حَكم الغرب الشرق، وهذه النهضة التي قامت بأوروبا في القرن السادس عشر وما بعده أسلمت إلى مضاعفات جعلت الفرق

بين الغرب والشرق شاسعًا، مع أن التقدم العلمي والصناعي وحده لا يخول للمدنية الحديثة هذا الفخر كله، فهو تقدم في ناحية واحدة من نواحي المدنية، وما زال هناك مجال للتقدم في نواحٍ أخرى كثيرة، كالتقدم في السلوك الخلقي وحب السلام والتعاون، وهناك شك كبير في تقدم الغرب فيها على الشرق.

وانتقلت المدنية الحديثة بعد القرن السادس عشر إلى الشرق سواء في مادياته كالراديو والتلغراف والقطار، أو في معنوياته كالأفكار والآراء، غاية الأمر أن الانتقال كان بطيئًا لما كانت المواصلات بين الشرق والغرب بطيئة، فلما أسرعت الاتصالات بواسطة الطيران والراديو ونحوهما، وزالت الحواجز التي كانت بين أجزاء العالم بعضها وبعض، أسرعت المدنية إلى الشرق وتقبلتها البلاد تقبلًا مختلفًا؛ تقبلتها اليابان مثلًا أكثر مما تقبلتها الصين، وتقبلها شمال السودان أكثر مما تقبلها جنوبه، ولعل الفارق الكبير بين انتشار المدنية في أوروبا وأمريكا وبين انتشارها في الشرق أن المخترعات الحديثة جاءت في أوروبا وأمريكا نتيجة لحوادث ذاتية حتمية، أما انتقالها إلى الشرق فكان نتيجة الاستعمار. وعلى الجملة لم يكن نتيجة لحياة اجتماعية خاصة أنتجتها، فكان الأمر كشجرتين؛ إحداهما: نمت وضخمت بسبب غذائها الداخلي وحسن تربتها وجودة بيئتها، وأما الأخرى: فقد تضخمت بسبب لصق أوراق وفروع عليها من الخارج، وشتان بين الوضعين؛ ولذلك يحس الأوروبي أو الأمريكي بأن الذي حدث من اختراع أو تقدم في الآلات الصناعية نتيجة طبيعية لحياته وظروفه، يتقبلها من غير دهش أو استغراب، أما الشرقي فيتقبلها مذهولًا مدهوشًا لأنها نبعت من غير بيئته، وكان من أثر ذلك أن التدرج في الشرق لم يخطُ الخطوات الطبيعية عكس الغرب المخترع، ففي الغرب أسلم (١) إلى (٢) و(٢) إلى (٣) وهكذا إلى (١٠) في حين أنه قد يفاجأ الشرق بـ (١٠) قبل أن يكون التسلسل من (١) إلى (١٠)، وربما ظهر ذلك في البيت الشرقي، فتجد فيه أشياء قد تكون آخر اختراع غربي على حين أنك تجد بجانبه شيئًا شرقيًّا من بقايا القرون الوسطى، فراديو «وفريجيدير» بجانب حصير وعباءة صوف من صنع اليد، أو جلباب حرير على آخر طراز من صنع أحدث الآلات الأوروبية بجانب بُلْغة في الرجل وهكذا، وهذا يعطينا صورة من صور الاضطراب في الحياة الشرقية وعدم الانسجام.

ومن آثار هذا تولد الشعور بالتسامي عند الأوروبيين والأمريكيين، والشعور بمركب النقص عند الشرقيين، ومن أجل هذا أيضًا عم التقليد في الشرق وكاد ينعدم الابتكار عندهم، بينما ازدهر الابتكار عند الغربيين. فيكاد الشرق ينقسم إلى قسمين قسم يقلد

الآباء الأولين ومدنية العصور الوسطى في العلم والأدب ونوع التأليف ونحو ذلك، وقسم آخر حديث يتسائل دائمًا إذا عرض أمر: ماذا تفعل فيه أوروبا وأمريكا؟ فإذا عهد إليهم وضع دستور لبلادهم، تساءلوا ماذا فعلت فرنسا وإنجلترا وبلجيكا وربما أخذوا من كل دستور مادة، وإذا أراد الأديب إنشاء قصيدة قلد وادي القمر والقصر المسحور ونحو ذلك من عناوين لقصائد أوروبية. وكل هذا تقليد لا ابتكار فيه، كل ما في الأمر أن قومًا يقلدون أجدادهم القدماء، وقومًا يقلدون الغربيين المحدثين، فنحن إما عالة على هؤلاء وإما على هؤلاء. إن عقول الشرقيين في جوهرها ليست بأقل ذكاء ولمعانًا من عقول الغربيين، بدليل أن الشرقي إذا تعلم بجانب الإنجليزي أو الفرنسي لم يقل عنه في فهم ما يُلقى عليه، ونجاحه في الامتحان، ولكنه كثيرًا ما يختلف عنه في مواجهة الحياة، والابتكار في حل ما يُعرض عليه من مشاكل، والاعتماد على النفس، وهذا يدل أن الأمر أمر تربية أكثر منه أمر خلقة وطبيعة.

فالشرق إذا احتاج إلى شيء فاحتياجه أشد ما يكون إلى زعماء يغرسون فيه حب الابتكار، ويعلمونه ألا يأخذ شيئًا إلا بعد تمحيص وامتحان، ويسائل نفسه دائمًا: هل هذا حق أو غيره أحق منه، بدل أن يسائل نفسه: ماذا تصنع أوروبا فيه؟ ولا شك أنه إذا رُبي هذه التربية لم يكن أقل شأنًا من الغربي ولا أقل قدرة على الابتكار، وسيكسب العالم من ابتكاره أكثر من تقليده للغرب. ففي العالم الآن نمط واحد من التفكير واتجاه واحد إلى غاية، فإذا ابتكر الشرقي واخترع فستوحي إليه بيئته وتفكيره واختباره حتمًا منهجًا غير المنهج الأوروبي، فيخترع ما يخترع على أساس غير أساس الغربي، ويكسب العالم من المجهودين والنمطين والابتكارين.

سمعت أن دستور ليبيا الحديث جاء فيه نص: إن كل ولاية في ليبيا تستقل بالتشريع في شئونها إلا في مسائل؛ إحداها: ما يتعلق بالقنابل الذرية! كأن ليبيا تنتج فعلًا هذه القنابل. وكل ما في الأمر، على ما أعتقد، أن الليبيين نقلوا بعض مواد دستور الأمريكان من غير تنبه إلى اختلاف حالهم عنهم. كالذي شاهدت عندما كنت قاضيًا في الواحات الخارجة، خطيبًا يخطب يوم الجمعة فيدعو أهل الواحة إلى تجنب التَّصييف في باريس! وكل ما في الأمر أن الخطيب حصل على ديوان خُطب ألَّفه قاهري فقلَّده تقليدًا أعمى.

والخلاصة أننا نخرج من كل هذه الآراء التي عرضناها بما يأتي:

(١) القول باختلاف الشرق والغرب بالمعنى الجغرافي لا محل له.

(٢) أنه قد يكون في الأمم أو في المدنيات التي سبقت المدنية الحديثة بعض امتيازات تعوز المدنية الحديثة وهي جديرة أن تقتبسها منها.

(٣) إن المدنية الحديثة ليست هي المثل الأعلى للمدنيات، ففيها عيوب تجعلها دون المثل الأعلى بكثير، والمثل الأعلى الذي ننشده هو مدنية إنسانية لا مدنية تسود فيها الوطنية والقومية، وتعد العالم كله كأسرة واحدة يعالج فيها المريض حتى يصح، ويأخذ بيد الصغير حتى يكبر، وتسهل فيها السبل للمتأخر حتى يلحق المتقدم.

(٤) خير للشرق وللعالم أن يبدأ الشرق نهضته الجديدة بشخصيته الجديدة ليقدم للعالم نوعًا من الحضارة هو في أشد الاحتياج إليها. حضارة يحل فيها السلام محل الحروب والتعاون محل الكفاح والتفاهم محل القهر.

الفصل الأول

المدنية الحديثة

مظاهر المدنية الحديثة

من أهم مظاهر المدنية الحديثة بناء الحياة على العلم، فعلماء الغرب منذ النهضة لا يقبلون شيئًا لأن أحدًا قاله قبلهم، بل يبحثون الأشياء مستقلين بحثًا دقيقًا. وقد وجَّههم بيكون وديكارت إلى بحث عماده التجارب والشك قبل اليقين، والاختبار في المعامل بدل الأبحاث النظرية البحتة، وقد ساروا على هذا المنهج من حوالي سنة ١٥٠٠ ميلادية. أما قبل ذلك العهد فلم يكن البحث حرًّا، بل كان لا يصح لأحد أن يقول إلا ما تقوله الكنيسة، أو ما قاله أرسطو ولو قام البرهان الحسي على عكسه.

وقد أدى المنهج الحديث إلى اكتشافات كثيرة؛ كاكتشاف نيوتن قانون الجاذبية، واكتشاف هارفي الدورة الدموية، ونادى دارون بمبدأ النشوء والارتقاء، ومن ذلك الحين تحول الطب إلى تجربة وعلم لا دخل للخرافات فيهما.

وتقدم علم الطبيعة والكيمياء، وكانوا أول أمرهم يرون أن الأشياء تختلف باختلاف العناصر الأولية أو كمياتها، وقد أوصلوا هذه العناصر إلى اثنين وتسعين عنصرًا، وتقدموا بعد ذلك فرأوا أن المواد تتكون من جواهر فردة تسمى الذرات، وإن كل ذرة تتكون من شحنتين كهربائيتين: سالبة وموجبة تلتفان حول نواة، واستطاعوا أخيرًا في سنة ١٩٤٥ أن يحطموا هذه الذرة فيجعلوا من هذا التحطيم قوة هائلة استخدموها في صنع القنابل ثم في الحياة السلمية.

وعلى الجملة فقد اعتمدت المدنية الحديثة على العلم، وكان لهذا العلم آثار كثيرة في الحياة، فقد أذهب عن الناس الخوف من الخرافات والأوهام، كالخوف من الجن، والخوف من المظاهر الطبيعية، وتغلبوا بوساطة العلم على كثير من الأشياء التي كانت تسبب موت الأطفال في صغرهم والنساء في ولادتهن، وعلى الطاعون والكوليرا ونحو ذلك، بفضل

اكتشاف الميكروبات ومعرفة وسائل علاجها، كما خفف هذا العلم من آلام الناس من العمليات الجراحية باكتشاف البنج وما إليه.

ومن أكبر مظاهر المدنية الآلات والمخترعات واستخدامها في الحياة، وذلك بفضل معرفة طبائع الأشياء وقوانين المادة، وقد استخرجوا بهذه الآلات: الفحم والحديد من باطن الأرض، وبذلك استطاعوا أن يتوسعوا في استخدام الآلات حتى عم استعمالها في أتفه السلع وأعظمها، وعظم الفارق بين ما يمكن للآلة أن تنتجه وما يمكن للإنسان بيده، فآلة واحدة قد تنتج من السلع أكثر مما ينتج ألف عامل، وبذلك أمكن توفير الزمن — فضلًا عن الإتقان — وتوافرت السلع في الأسواق، وقربت المسافات بين أجزاء العالم.

وما أن زاد الإنتاج وقربت المسافات، حتى نشطت التجارة، وزادت المعاملات، فنظمت البنوك من جديد، واجتمعت المؤتمرات، وعُقدت المعاهدات، ونشطت حركة الاستكشافات، ونشبت الحروب رجاء التوسع في الأسواق.

ومن مظاهرها أيضًا تعميم التعليم وانتشاره وعده حقًّا لكل إنسان لا حق طائفة خاصة؛ وبذلك تنور الناس وطالبوا بحقوقهم، وقد استطاعت المدنية الحديثة نشر العلم بوسائل كثيرة، كالطباعة والسينما والصحف والإذاعة، ووصلت المدنية في هذا إلى ما لم تصل إليه مدنية قبلها؛ حتى إذا رأيت ما يُطبع من الكتب والمجلات والجرائد رأيت عجبًا.

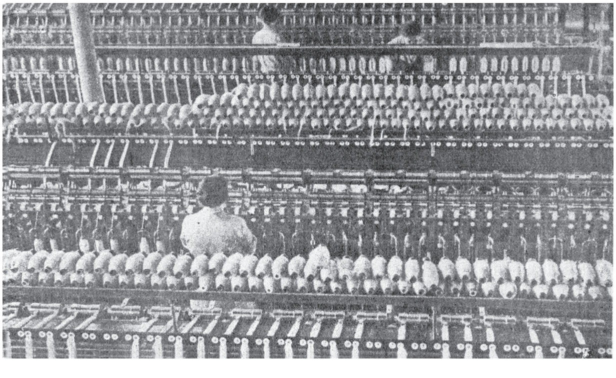

الإنتاج الآلي.

وقد كان الناس في العصور القديمة ينقسمون إلى قسمين: أغنياء لا إلى حد، وفقراء لا إلى حد. وكان يعتبر هذا التقسيم من أعمال القدر البحت لا دخل للإنسان فيه. فتدخلت المدنية الحديثة في هذا وحددت ثروة الغني، وتدخلت في فقر الفقير، وجعلت حدًّا أدنى للمعيشة لا يصح أن ينزل عنه، وحددت ساعات العمل، وحرَّمت تشغيل الأطفال دون سن معينة، وزادت من أجور العمال، إلى غير ذلك من إصلاحات قرَّبت بين الفقير والغني إلى حد ما. وإذا تأمل الإنسان هناك فيما يعمل وفيما حوله من أشياء، وجد أن المدنية غمرته في كل النواحي، ففي جيب العامل البسيط أو يده ساعة دقاقة من صنع المدنية، وهو يلبس من صنعها، ويحلق ذقنه بموس من إنتاجها، ويبعث لعميله تلغرافًا أو يكلمه في التليفون، ويسمع الحديث في الراديو، ويصعد المكان العالي في المصعد ويركب القطار والترام والطيارة، وقد يستخدم المنظار لعينه، وقد يكتب على الآلة الكاتبة، وقد يطبع كتابًا.

وهذه الحضارة تنتقل في سرعة البرق من مكان إلى مكان، ومن قطر إلى قطر، حتى في أتفه مظاهرها.

والشرقيون عادة يختلفون في تقبل المدنية الحديثة بقدر اختلاف بيئتهم ومدى استعدادهم، شأنهم في ذلك شأن المستمعين لمحاضرة يختلفون في فهمها حسب استعدادهم، فالشيء الواحد قد يأخذه قوم فيحسنون استخدامه ويأخذه قوم فلا يحسنونه، كالبرلمان، ترى بعض الدول الشرقية قد حافظت فيه على الشكل والأوضاع القانونية، فتقسم البرلمان إلى نواب وشيوخ، وتحدد اختصاصات كل مجلس منهما، ولكنه في الحقيقة فاقد الروح، فالانتخاب مزور، والنتيجة كما يريدها الحاكم، والأعضاء يستغلون مراكزهم لنشر المحسوبية، وأكثر الأصوات غالبًا تُمنح حسبما يشاء الحاكم لا حسب المصلحة العامة.

إن تقبل المدنية الحديثة كتقبل الأديان؛ فإنَّا نرى أنه إذا انتقل دين من أمة إلى أمة، قد تتفق الأمتان في شكل أداء الشعائر، والأعمال الظاهرة، ولكن تصور الدين يختلف في كل أمة عن الأخرى؛ ولذلك ترى أنه لما عُرضت المدنية الحديثة على العالم امتصتها اليابان أكثر مما امتصتها الهند، بسبب حسن الاستعداد، وبسبب وجود ملوك أو أمراء أو زعماء دفعوا الشعب دفعًا إلى السير في سبيل المدنية، فإذا لم توجد هذه الظروف في أمة تخلفت عن الامتصاص. ولكن يمكن بصفة عامة أن نقول إن العالم كله متجه نحو الأخذ بالمدنية الحديثة، فلا بد لمن يريد الآن حياة محترمة من أن يرفع من مستوى معيشته أولًا، وهذا

لن يتأتى إلا باستخدام الآلة، وبالاستزادة من العلم والإنتاج، وبمعرفة تامة بالوسائل الحديثة للتجارة وأعمال البنوك. ثم فليتجه الشرق بعد هذا ذلك الاتجاه الذي لم يتجه فيه الغرب، فيعمل أن يكون الإنتاج لصالح السلم وليس لصالح الحرب، وليتجه بالعلم نحو سعادة الإنسان لا نحو شقائه، ولتُصبغ وسائل التجارة وأعمال البنوك بالصبغة الإنسانية لا بالصبغة القومية، وهذا ليس بالأمر الشاق على الشرق، فخصائصه وأخلاق أبنائه يسمحان له بالسير في هذا الطريق.

مزايا المدنية الحديثة وعيوبها

للمدنية الحديثة مزاياها الكثيرة وعيوبها الكثيرة شأن كل مدنية عرفها التاريخ.

فمن مزايا المدنية الحاضرة:

(١) بناء الحياة على العلم، فتربية الناشئين تُبنى على آخر ما وصل إليه علم النفس والاجتماع، والحياة التجارية تُبنى على آخر ما وصل إليه علم الاقتصاد وهكذا، وما لا يؤيده العلم لا يُلتفت إليه.

ويتبع ذلك تعقيل الإصلاح، بمعنى إخضاعه والسير به حسب ما يرشد إليه العقل وحده. فإذا أريد مشروع إصلاحي بدأ بتصميمه ودراسته دراسة وافية والاعتماد فيه على الإحصاءات الدقيقة المختلفة، وتهيئة الرأي العام لاستقباله استقبالًا حسنًا وهكذا، ولا يصح القيام بإصلاح لمجرد العواطف والرغبات من غير دراسة؛ ولذلك قام المصلحون في الأمم الحديثة مقام الأولياء والقديسين فيما مضى.

(٢) ربما عُد من مزايا المدنية الحديثة محاولة تحطيم الاستبداد في أشكاله المختلفة وتسويد رجل الشارع ما أمكن، من ذلك تحطيم سيادة الملوك والأمراء والمناداة بسيادة الشعوب ممثلة في برلماناتها ومجالسها، ومحاربة الغنى المفرط لمصلحة الفقراء.

على أن المدنية الحديثة لم تخلُ من ديكتاتورية أحيانًا كالتي أقامها هتلر وموسوليني؛ فإنهما استبدا استبدادًا يشبه استبداد حكام الشرق. وقد قرأت هذه الأيام أن ممثلًا إنسانيًّا معروفًا يعد هذه الأيام فيلمًا يمثل فيه ديكتاتورية أمريكا المدعية الديمقراطية بأوسع معانيها، وإن الاستبداد قد ينتقل من حكام إلى أحزاب، وإلى نوادٍ سياسية لا يعلم رجل الشارع من شأنها شيئًا.

(٣) التقدم في فهم حقوق الإنسان؛ فمهما قيل عن عسف الأوروبيين وظلمهم فقد تقدموا في فهم حقوق الإنسان، ففهموا حق الإنسان في الحياة وفي الحرية وفي التعليم

وغير ذلك، ولم يعد الملوك والأمراء يستعبدون الناس ويرهقون أرواحهم من غير تحمل أية مسئولية.

على أنهم إن كانوا قد طبقوا ذلك على أنفسهم فإنهم طبقوا نقيضه في مستعمراتهم والبلاد الخاضعة لهم.

(٤) ومن مزايا هذه المدنية عملها على ربط العالم كله برباط واحد بسبب سرعة المواصلات والإذاعات، وفي هذا منفعة كبيرة؛ لأنه يقوي الرأي العام في أقصى الأرض، ويجعل من السهل تتبع كل ما يجدُّ في العالم.

(٥) كثرة الاكتشافات وسرعتها وتوالدها مما يزيد في راحة الإنسان ورفاهيته.

وبجانب ذلك كله عيوب لا تقل عما ذكرنا من مزايا:

(١) من ذلك هول الحروب مما سبَّب القلق والانزعاج، خصوصًا بعد اختراع القنابل الذرية والهيدروجينية.

قرأت أن إذاعة روسيا وجهت مرة سؤالًا: كيف يمكن منع الحروب؟ فتلقت أجوبة مختلفة من كل أنحاء العالم رجالًا ونساء، ومن جميع الطبقات. يقول بعضها: إن المعاهدات لا تمنع الحروب ولكن تؤجلها، وإنما يمنع الحرب اجتماع من يمثل الشعوب حق التمثيل، والشعوب لا مصلحة لها في الحرب، وإنما يدعو إليها ويدبرها الرأسماليون الذين ينتفعون ماليًّا من الحرب ولا يهمهم ما يصيب العالم من ويلات. ويقول آخر: إن العلاج تحريض العمال على الامتناع عن إنتاج المواد الحربية مهما هددهم الرأسماليون وقواد الحروب. ويقترح آخرون اقتراحات مختلفة؛ ربما كان خيرها نشر التعليم السليم بين الشعوب.

(٢) ومن ذلك غرور أصحاب المدنية الحديثة واعتدادهم كثيرًا بأنفسهم، فعندهم أن الرجل الأبيض هو وحده يستحق البقاء دون الملونين؛ ولذلك استخفوا بالشرق وأسسوا تاريخهم على الرجل الأبيض كأنه هو الأصل، وتاريخ غيره على الهامش.

فلما ازداد وعي الشرق وأخذ يطالب بحريته واستقلاله، أبى عليه الرجل الأبيض ذلك، وبعبارة أخرى أبى أن يعدل عن شعوره بعظمته وسموه عن الملونين؛ فكان من نتيجة ذلك صراع عنيف بين الشرق والغرب.

ومن آثار ذلك أنهم يمجدون الحرية ويسبحون بحمدها، فإذا أراد الشرقيون أن يقولوا قولهم ويتحرروا تحررهم عبسوا في وجوههم، ونكلوا بهم، ولم يمكِّنوهم أن يخطوا

أية خطوة في سبيل حريتهم، كأن الحرية التي ينادي بها الغربيون وَقْف عليهم وفضيلة لهم، ورذيلة لغيرهم.

(٣) عبادة القوة، فالغربيون لا يقدسون شيئًا كتقديسهم للقوة، وليس الحق عندهم إلا القوة، فالأمة عندهم لا تُحتَرم إلا إذا كانت قوية، أما الضعيفة فلا يقام لها وزن؛ مهما كان في جانبها من حق. ولغة التخاطب هي السيف والمدفع والآلات الحربية، لا المنطق ولا الحجج العقلية.

(٤) مما أعده من العيوب؛ المغالاة في تسليط المرأة على الرجل، فالمرأة متسلطة على الطفل في البيت، وعلى الشاب عند خطبته، وعلى الرجل بعد الزواج. ومن طبيعة المرأة أن تحكمها العواطف لا العقل، فالمغالاة في تسليطها على الرجل ضرر على الرجل خاصة وعلى المجتمع عامة.

(٥) كثير من الفلاسفة ينعى على المدنية الغربية أنها مدنية اختل فيها التوازن، فنما عقلها وضؤل قلبها، نما عقلها بالعلم والاختراع والاكتشاف ولكن ضعف قلبها، وربما عبروا عن ذلك تعبيرًا آخر بأنها مدنية مادية تنقصها روحانية.

نعم إن لهم عواطف نبيلة تتجلى في بناء مستشفيات وإنشاء ملاجئ وتبرع للمنكوبين، ولكنهم غالبًا لا يقدِّرون الأشياء إلا بماديتها، ودليل ذلك معاملتهم للشرقيين، وتناحر بعضهم مع بعض. فإنجلترا وفرنسا تتفقان سنة ١٩٠٤ على أن تطلق فرنسا يد الإنجليز في مصر، في نظير أن تطلق إنجلترا يد فرنسا في المغرب، كل يستعمر ويستغل ويُنكل، وقد تكشفت الحرب العالمية الأولى عن اتفاق فرنسا وإنجلترا سرًّا على تقسيم البلاد العربية عليهما، بحيث يكون لكل منهما منطقة نفوذ لا تتعداها، فتأخذ إنجلترا مصر والعراق وفلسطين، وتأخذ فرنسا سوريا ولبنان، في حين أن إنجلترا كانت تتفق في الوقت نفسه مع أمير الحجاز على أن تمكِّن أكثر هذه البلاد من استقلالها.

وتقرأ الصحف الغربية فترى فيها مخايل الانحلال، والصحيفة كالطبيب؛ هذا يصف مرض الأفراد ويشخصه، وتلك تصف أمراض المجتمع وتشخصها.

وقد أعجبتني مقالة «لمكسيم جوركي» لم يتمها؛ تدل على ما نقول من مخايل الانحلال، وتدل على نوع الحياة التي تحياها الشعوب الغربية.

قال تحت عنوان «بعض مقتطفات من صحف الغرب»:

> هرب أربعة عشر طفلًا من إحدى إصلاحيات الأحداث وقد قبض البوليس على اثني عشر منهم، ولم يعرف مكان الطفلين الآخرين …

أم تذبح أطفالها بسبب الجوع ...

اختناق خمسة أشخاص: زوج وزوجة وأم الزوج وابنه في سن الثالثة ...

شاب يقطِّع امرأة إلى قطع صغيرة ...

أطلق سراح أحد المسجونين بعد أن قضى خمسة أعوام في السجن، ثم ذهب إلى رجال البوليس وطلب منهم أن يعودوا به إلى السجن من جديد لأنه مريض ولا يستطيع العمل ويأبى التسول فرفضوا طلبه لأن قوانين البلاد لا تجيز ذلك، فذهب وحطم نافذة أحد المحلات وتعارك مع رجال البوليس فعاد إلى السجن ...

توفي شحاذ بلغ من العمر الثمانين ثم وُجد أنه يملك مليون جنيه ...

توفي لورد إيشتون عن ٨٩ عامًا وترك ثروة تقدر بعشرين مليون دولار ...

التهم أمس هاثز مولر ٣٦ إصبعًا من السجق في إحدى عشرة دقيقة بسبب رهان ...

في عام ١٩٢٨ انتحر بالنمسا ٩٥٣٠ شخصًا منهم ٦٦٩٠ رجلًا و٢٨٤٥ امرأة، ومنهم ٦٤١٣ من سكان المدن و٣١١٧ من سكان الريف ...

قرر عمدة لومبرج من أعمال سيليزيا فرض ضريبة على القطط، ولكن المجلس البلدي رفض الاقتراح فلجأ العمدة إلى وسيلة أخرى: وضع مصايد للقطط الضالة وسمح لأصحابها باستردادها مقابل غرامة مقدارها ٣ ماركات ...

عندما ذهب المحضرون للحجز على أملاك الفلاحين بالقرب من هانبورج؛ لعدم دفعهم ما عليهم قاوم الفلاحون وتراجع المحضرون ...

اعتاد شبح ليلي زيارة أحد القساوسة في برلين، وبعد أن استيقظ القس ثلاث مرات على صوت الشبح، قام بتبليغ البوليس فوجدوا قبعة تحت نافذة حجرة القس والمعتقد أن الشبح الليلي نسيها ...

دارت مناقشة حادة حول: هل يسمح للسيدات اللاتي يقصصن شعورهن بدخول اجتماعات الكنيسة؟ ووصل الجدل إلى الفاتيكان في مايو سنة ١٩٢٤ وأجابت كلية الكاردينالات بأن قص الشعر لا يتعارض مع المبادئ المسيحية ...

نشرت إحدى الصحف تقارير للبوليس تدل على اختفاء أكثر من ٤ آلاف امرأة كل عام من فرنسا، واعتقال عدد كبير من تجار الرقيق الأبيض في كثير من المدن الفرنسية، وثبت أن العصابات قد باعت ٢٥٠٠ فتاة لدور الدعارة في

جمهوريات أمريكا الجنوبية، وظهرت مثلها عصابة أخرى للتجارة البشرية في بولندا ... إلخ.

إلى جانب ذلك نرى الإعلانات المتعددة بالحروف الكبيرة عن المطاعم الفاخرة والكباريهات وأعمال الترف، ونسمع قولهم إن الحياة تمضي قصيرة والأيام تمضي سريعة فلنعش في مرح دائم.

قد يقال إن هذه حوادث جزئية قد لا يخلو منها مجتمع مهما رقي، ولكن كثرتها وتعدد نواحيها ومقابلة الصحفيين والقارئين لها بالفتور والجمود، دليل سيئ على خطورة الحال.

ومن مظاهر الانحلال أيضًا سلوك الغرب مع الشرق، فلا الشرق بعد أن تنبه وعيه يرضى أن يعامله الغرب كما كان يعامله من قبل، ولا الغرب يريد أن يغير خطته إزاء العوامل الجديدة في الشرق، ومن ثم نرى اضطرابات في الشرق في كل مكان، في مصر، في تونس، في مراكش، في الهند الصينية، في أفريقية الجنوبية، في إيران، في الصين، في مختلف الأنحاء، وانقسم العالم إلى معسكرين: روسيا ومن يدور في فلكها من الأمم، وأمريكا ومن يدور في فلكها، وهذه تسمي نفسها الأمم الديمقراطية وهو اسم زائف، وإلا فما معنى الديمقراطية مع هذا الاستعمار والاستعباد والاستغلال للشرق رغم أنفه، ومع اضطهاد الملونين في كل مكان وخاصة زنوج أمريكا؟ حتى المعسكر الواحد منقسم على نفسه فالنزاع بين أمريكا وإنجلترا اليوم على أشده، ودول أوروبا الغربية لا تكاد تتفق على شيء. يضاف إلى ذلك أن أكثر ميزانيات الدول منصرفة إلى الحرب أو الاستعداد للحرب، وأكثر من ٧٠٪ من ميزانية أمريكا مخصص للتسلح وكلما أنفق معسكر على الحرب أو الاستعداد لها، اجتهد المعسكر الآخر أن يستعد لها أكثر منه، مما لو أنفق في رفاهية الشعوب وإسعادها لكانت له أطيب النتائج.

ومما يؤسف له أنهم أفرطوا في المناداة بكلمات أخلاقية: كحرية وإخاء وإنسانية وتعاون وتضحية، فإذا دققت النظر رأيتهم يستعملونها في مواضع تستوجب السخرية، فالحرية كثيرًا ما تُستعمل لجري المرء وراء شهواته، وعند خيانة المرء الأمانة. والتعاون كثيرًا ما يستعمل للاتفاق بين دولتين للغدر بثالثة، أو لتنسيق العمل بين حزبين للقضاء على ثالث. والتضحية هي أن يضحي الشعب بأرواح أفراده لينعم أصحاب المصانع الحربية. ولم يدرك الغربيون أنهم مخدوعون، وذلك لعموم الخديعة، فمن دعى منهم لكبت الغرائز ومحاربة المجلات الخليعة والصور الفاضحة والملاهي الداعرة عُد رجعيًّا، ومن دعى منهم إلى السلام وعدم التسليح عُد خائنًا وحق عليه أن ينبذ من قومه.

وبعد، فقد قام فلاسفة ومصلحون أدركوا هذه العيوب وتوقعوا الشر منها ونادوا بإزالتها، أمثال ولسن وروزفلت، ومن أجل ندائهم أُسست عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة، ولكن ما لبثتا أن تغلبت عليهما الروح الرجعية فسخرتها لمصلحتها الشخصية وقلبتها إلى روح حزبية فلم تعملا كما أراد المصلحون لها، وفشلت عصبة الأمم وأوشكت هيئة الأمم أن تلحق بزميلتها.

يقول إشبنجلر في كتابه «تدهور الغرب»:

> إن اليأس وفقد الشهية إلى الحياة، والاضطراب الخلقي والسياسي والثقافي في هذا الزمن؛ هي أعراض الشيخوخة التي أصابت حضارة الغرب بأكملها.

ويقول أيضًا:

> إن المشكلة الرئيسية للمجتمع الآن هي فقد الثقة والعزم، وإذا نحن بحثنا عن فقدان المجتمع للثقة والعزم أمكننا فهمها في ضوء فقدانها في الأفراد، وإذا فحصنا المشكلة عند الأفراد وجدنا أنها ترجع إلى أسباب كثيرة؛ منها أننا توسعنا في الصناعة توسعًا كبيرًا، من غير أن نُكيف أنفسنا تكييفًا يسايرها، ومنها أننا أملنا كثيرًا في سرعة التقدم وزيادته، فخاب أملنا، ومنها أننا لم ننجح في إخضاع أهدافنا وآمالنا لأهداف الغير وآماله فغلبت علينا الروح الفردية والأثرة والأنانية، ومنها أن الطبقة الأرستقراطية لما اضطرت للتنازل عن مركزها لم يمكن للديمقراطية الجديدة أن تحل محلها؛ لأنها أسرفت في طلب الحقوق إسرافًا يزيد عن أداء الواجبات، ومنها اضمحلال العقيدة بتأثير العلوم؛ وقد كانت خير عماد يعتمد عليه الإنسان وبفقدها فقد الإنسان طمأنينته، وسيره نحو الكمال وحل محلها النظر العلمي. كما أنه اهتم بالمادة دون الروح واعتمد على الحقائق التي يسهل إثباتها بسرعة، ومل الحقائق التي تحتاج إلى تجارب أجيال لإثباتها.

هذه كلها وغيرها مما لم نذكر أسبابًا أثارت القلق والاضطراب والشك في كل شيء مما عده اشبنجلر وغيره مظاهر للتدهور.

ولعل أسوأ وأفظع ما في المدنية الحديثة اكتشافها القنبلة الذرية التي خلعت قلوب الناس وسببت لهم كثيرًا من الاضطراب. قد يكون تحليل الذرة نعمة كبرى لو استُعمل

وجوه مغبرة خارجة من المصنع.

في خير الناس، كمعالجة الأمراض وتسيير السفن والقطارات، ولكن مع الأسف لتسابق الدول في التسليح كان أول استخدام لتحليل الذرة تركيب القنابل منها. وقد تسابق في ذلك المعسكران، سبقت إليه أمريكا فأسرعت إلى اكتشافه روسيا. وربما كان ذلك في خير العالم؛ إذ لو امتلكه معسكر واحد لاستبد بالعالم استبدادًا لا حد له، ومن الأسف أيضًا أنهم تقدموا في هذا المضمار خطوة أخرى؛ فاكتشفت القنبلة الهيدروجينية بعد القنبلة الذرية وحازها أيضًا المعسكران، وهم يلوحون باكتشاف قنبلة أعظم.

كان الناس في القرن التاسع عشر يؤمنون بتقدم العالم المستمر، ويعتقدون في المستقبل اعتقادًا حازمًا، فلما جاء القرن العشرون شك الناس في كل شيء، وذهب الإيمان بكل شيء. كل نظرية علمية وجد من العلماء من يشك فيها، وساد التشاؤم بين الناس. فلماذا يئسوا ولماذا تشاءموا، مع أنهم أحرزوا كثيرًا من النصر في الميادين المختلفة؟ لقد فعلوا كما فعل ميداس، في الميثولوجي اليونانية، إذ فرح أول الأمر بأن عنده من القدرة ما يجعل كل شيء يمسه ذهبًا، فلما هم بالأكل مس الرغيف فتحول ذهبًا.

ومن أكبر ما مني به العالم في المدنية الحديثة خلق ما يسمى بالوطنية، لا بمعنى الدفاع عن الوطن، ولكن بمعنى التعصب للوطن، والسعي لإعلاء شأنه وتفوقه على الأمم الأخرى، ولو شاركتها في اللغة والدين، والسعي لتوسيع رقعتها وإخضاع الأمم الأخرى

لعظمتها. وهذه الوطنية بهذا المعنى ما هي في الواقع إلا ركاب الاستعمار والحروب في سبيل السيطرة الاقتصادية على العالم، وحسبك دليلًا على هذا أن الحربين العالميتين الأخيرتين كان من أهم أسبابهما رغبة الأمم الغربية في الاستيلاء على آسيا وأفريقيا واستغلال مواردهما وفتح أسواق جديدة لتجارتها.

وبعد فقد أكثرت من ذكر معايب المدنية الحديثة حتى كدت أنسى عيوب الشرقيين، ولست أسعى في ذلك إلى التهليل للشرق، وإلا كنت كالفقير يتضور جوعًا، فإذا حكيت له متاعب بعض الأغنياء حمد الله على فقره، وإنما ذكرت ما لنا وما علينا وما لهم وما عليهم حتى نعلم أين نحن وأين يجب أن نكون؟ ثم لنبحث بعد ذلك عن الطريق الذي سينقلنا مما نحن فيه إلى ما يجب أن نكون عليه.

الفصل الثاني

الاستبداد والديمقراطية

إن معنى الحكومة يختلف في الشرق عنه في الغرب:

(١) فالغربيون يفهمون أن الحكومة هيئة تمثلهم، وترعى مصالحهم. نعم إن هذا المعنى بدأ بسيطًا عندهم، بدأ باقتناعهم أن أية ضريبة لا يصح أن تُفرض على الشعب إلا بموافقة ممثليه، ولكنه تطور حتى انتهى ببسط إشراف الشعب المطلق على الحكومة، وهم يكرهون السلطان المطلق ويعدونه نقمة كبرى يجب أن تُزال، أما في الشرق فقد توالى عليهم الظلم والاستبداد، ولم يصادفهم رجال أقوياء يصرخون ضد الظلم ويُقفون الظالم عند حده، فجرأ الحكام عليهم إذ رأوا سكوتهم عما لحقهم، بل ومقابلة الشعب ظلم الحكام بمديحهم والدعاء لهم بإعلاء شأنهم.

(٢) تعتقد الحكومة في الغرب أن أول مهامها ضمان الأمن للشعب في نفسه وماله، ويرى المحكومون أن ذلك أول واجب عليها تحقيقه، فإن لم يُحقَّق ثاروا وطلبوا وألحوا في الطلب. أما في الشرق فقد عبَّر عنه سعد باشا زغلول تعبيرًا صادقًا؛ إذ قال ما معناه أن الحاكم ينظر إلى المحكوم نظرة الصائد للطائر، والمحكوم ينظر إلى الحاكم نظرة الطير للصائد.

(٣) اعتقاد الشعب الغربي أنه هو وحده الذي يملك حق تشريع القوانين بواسطة من يمثله، على حين أن الحكومة في الشرق ترى من حقها أن تشرِّع ما تشاء من غير أن يكون عليها حسيب أو رقيب.

(٤) اعتقاد الشعب الغربي أن له الحق على دولته في أن تعلمه وتقيه شر الجهل والمرض والفاقة، بينما الدولة في الشرق ترى أن تلك الأمور كلها ليست واجبًا عليها، وأنها إن فعلت فتفضُّل منها.

(٥) ترى الدولة الغربية أن من حقها أن تقبض على السلطة كلها بيدها، ولا تسمح لأشخاص أو طبقات أن تسلبها شيئًا من سلطانها. أما في الشرق فوُجد بجانب الدولة أفراد وهيئات وطبقات لها سلطان يشبه سلطان الدولة، كطبقة الأغنياء ورجال الدين، وبذلك تحول الفلاح والعامل في الغرب من عبد ذليل إلى إنسان مواطن له حقوق الطبقة الغنية، وليس الأمر كذلك في الشرق؛ ولذلك نرى القانون في الغرب يطبَّق على الرفيع والوضيع، بينما نراه في الشرق وكأنه لم يوضع ليطبَّق على الأغنياء والوجهاء، وزاد الأمر سوءًا ذلك المنظر البغيض الذي سببته الامتيازات الأجنبية، فقد وضعت أمام المواطنين منظر قوم وجهاء فوق القوانين وفوق الضرائب.

(٦) بينما تطور الغربيون إلى نظام تمثيلي يراعى فيه الشعب كل المراعاة، تطور المسلمون إلى أدنى، فبعد أن سار المسلمون الأولون على نظام مقتضاه خضوع الخليفة للكتاب والسنة، ويشرف على تنفيذه أهل العقد والحل، تطور إلى نظام ليس فيه إلا رعية تؤمر و«إمام» يأمر، وأصبح الحكام لا يفكرون في مواطنين لهم حقوق ولكن في رعية تستغَل لشهواتهم.

ثم زاد الأمر سوءًا أن المستعمرين أو المنتدبين تحالفوا مع الملوك والأغنياء والوجهاء ضد الشعب، فهم يتحالفون مع الطبقة الأرستقراطية في مصر، ومع رؤساء العشائر في العراق، ومع الوجهاء في تونس والجزائر ومراكش، ويمكنونهم من استغلال نفوذهم وامتصاص دماء فلاحيهم ولو تضور هؤلاء جوعًا. وكلما كان الرجل أكثر نفوذًا في قومه كانوا له أقرب، وهم يفضلون النظام الملكي لأنهم يعلمون أنه من السهل التأثير في الملك بشتى الوسائل، ثم هو يؤثر في شعبه حسبما يريدون، فذلك خير لهم وأسهل من أن يتصلوا بالملايين ويوجهوهم كما يريدون. إن الدول المستعمرة والمنتدبة تعلم حق العلم وجوه الإصلاح الحقيقي ثم لا تقدم عليه إذا أضر ضررًا ولو خفيفًا بمصلحتها؛ ومن أجل ذلك نرى أن التغير الذي حدث في الشرق إنما حدث للمثقفين لقراءتهم الكتب الحديثة أو سفرهم إلى أوروبا أو كثرة احتكاكهم بالأجانب بأي شكل، أما طبقة الفلاحين والعمال وهم أغلبية الشعوب فلم يتغيروا كثيرًا عن حالهم في أقدم العصور، ومع أن ما نقل من النظم من الغرب إلى الشرق كثير منه شكلي لا جوهري؛ فبعض هذه النظم كان له أثر في الشرق بالغ، كالتنظيم المالي، ووضع الميزانيات، وإدخال نظام الضرائب على الدخل، وقد كانت الحالة المالية في الشرق في العصور الوسطى لا تخضع لأي نظام مالي، ولا تزال

بعض الدول الشرقية كذلك إلى الآن. ومثل التنظيم القضائي فقد أُدخل عليه في الشرق تحسينات كثيرة، وكان في العصور الوسطى فوضى لا يخضع لأي نظام.

ومن الضروري أن نلاحظ أمرين:

أولهما: أن المعيشة البدوية في صحراء العرب في عهد الجاهلية وخضوع القبيلة لرئيسها خضوعًا تامًّا، وتنظيم الحياة على أساس الأسرة، كان له أثر عميق في حياة المجتمع العربي، حتى بعد أن أسلموا وتحضروا.

وثانيهما: أنه لما غزا التتار العالم الشرقي من الصين إلى مصر، فعلوا بالبلاد أفاعيل عجيبة حتى قال عنهم ابن الأثير: «إنهم لم يُبقوا على أحد، وقتلوا النساء والأطفال والرجال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة ... وهذه الحادثة قد استطار شرها وعم ضررها»، وزلزلت البلاد زلزالها، وأصيب الناس بالصرع، واكتسح جنكيرخان بجنوده ما وراء النهر ثم خراسان ثم العراق، وأسقط بغداد وأتلف ثقافتها بطرح كتبها في دجلة، واستباح المدينة أيامًا، وكان جنوده إذا حلُّوا في أي مكان خربوا وهتكوا الأعراض وسلبوا ونهبوا، وجاء بعد جنكيزخان هولاكو ثم تيمورلنك، وكلٌّ عسف ودمَّر وخرَّب وأذلَّ الناس وأرعبهم.

وإنما ذكرنا هذين الأمرين لندل بهما على عمق تأثير الأحداث التاريخية في الشرق، مما بقي أثره حتى اليوم، ولا ندري متى يزول هذا الأثر. فلكل من الشرق والغرب حوادثه التي أثرت فيه، وجعلته مكونًا هذا التكوين الذي نراه اليوم.

نكتب هذا ونحن ننظر إلى الشرق قبل أن تغزوه المدنية الغربية، أو تدخل نظمها عليه وتؤثر فيه أثرًا قليلًا أو كثيرًا، لقد أثر الغرب في الشرق باحتلاله أو الانتداب عليه، ثم جاءت الحربان العالميتان فزاد تأثر الشرق بالغرب، واختلط العالم كله اختلاطًا غريبًا وسهلت المواصلات، حتى أصبحت تُقطع المسافات البعيدة في أوقات قريبة، وليكسب الغرب الشرق للمحاربة بجانبه منَّاه الأماني الطيبة، ففتح أمام عينيه آفاقًا واسعة جميلة، فلما قبض يده بعد ذلك حرص الشرق على الوعود وطالب بها، واتخذها مثله يدافع أشد الدفاع من أجلها.

وإلى جانب ذلك التفت الشرق إلى نفسه، فرأى أنه يمكنه أن يصنع نفسه كالغرب، ورأى أن الطبيعة منحته مواد خامة كالبترول والمعادن هو أولى بالانتفاع بها من الغرب، وإنه إذا استخدمها اغتنى، وإذا اغتنى ارتقى، فوضع النواة الأولى للصناعة، ولا شك أن الصناعة ستغير من أخلاقه وطريقة معيشته.

وهذان العاملان أشعلا نار الوطنية في الشرق، فبدأت كل أمة شرقية تطالب بحقوقها؛ وأولها الاستقلال التام: السياسي والاقتصادي، وكلما تنبه وعيه ألح في المطالبة، ولم يضن بالتضحية.

ولما بلغ الوعي الاجتماعي هذا المبلغ لم يلتفتوا إلى علاقتهم بالغرب والمستعمرين وحدهم، بل التفتوا أيضًا إلى حكوماتهم فوجدوها عائقًا عن تقدمهم بدل أن تكون عونًا لهم؛ فحاربوها أيضًا، وأسقطوها إن استطاعوا، وأصلحوها إن استطاعوا.

وعلى الجملة وسَّع الاحتكاك بالغرب ووعود عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة من آمال الشرق، وجعلته يُكثر من اقتباس النظم الغربية ويطبقها على نفسه، فكره بذلك الأساليب القديمة الاستبدادية، التي كان يُحكم بها من الداخل والخارج، ورأى أن لا بد من أن يحكم نفسه بنفسه.

يقول «ول ديورانت» في كتابه «قصة الحضارة» عن مصر القديمة:

> لقد كانت الحكومة المصرية من أحسن الحكومات نظامًا، وكانت أطول حياة من أية حكومة أخرى في التاريخ، وكان الوزير يخرج من بيته في الصباح الباكر «ليستمع إلى مظالم الفقراء، ويصغي إلى ما يقول الناس في مطالبهم، لا يميز فيها بين الحقير والعظيم.» وقد وصلت إلينا على بردية صورة الخطاب الذي كان يلقيه الملك حين يعين الوزير في منصبه: «اجعل عينك على مكتب الوزير وراقب كل ما يحدث فيه، واعلم أنه هو الدعامة التي تستند إليها جميع البلاد، ليست الوزارة حلوة، بل هي مرة، واعلم أنها ليست إظهار الاحترام الشخصي للأمراء والمستشارين، وليست وسيلة لاتخاذ الناس أيًّا كانوا عبيدًا، انظر إذا جاءك مستنصف من مصر العليا أو السفلى فاحرص على أن يجري القانون مجراه في كل شيء، وأن يتبع في كل شيء العرف السائد في بلده، وأن يعطى كل إنسان حقه، واعلم أن المحاباة بغيضة إلى الإله، فانظر إلى من تعرفه نظرتك إلى من لا تعرفه، وإلى المقربين إلى الملك نظرتك إلى البعيدين عن بيته. انظر إن الأمير الذي يفعل هذا سيبقى هنا في هذا المكان، وليكن ما يخافه الناس من الأمير أنه يعدل في حكمه، ارعَ القواعد المفروضة عليك.

ومن خطبة ألقاها دوق جو بين يدي ملك الصين لي-وانج في حوالي عام ٨٤٥ قبل الميلاد:

> يعرف الإمبراطور كيف يحكم إذا كان الشعراء أحرارًا في قرض الشعر، والناس أحرارًا في تمثيل المسرحيات، والمؤرخون أحرارًا في قول الحق، والوزراء أحرارًا في إسداء النصح، والفقراء أحرارًا في التذمر من الضرائب، والطلبة أحرارًا في تعلم العلم جهرة، والعمال أحرارًا في مدح مهارتهم وفي السعي إلى العمل، والشعب حرًّا في أن يتحدث عن كل شيء، والشيوخ أحرارًا في تخطئة كل شيء.

وقال النبي ﷺ «الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأحمر على أسود ولا لعربي على عجمي.»

وقال أبو بكر عندما ولي الخلافة: «إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن صدفت فقوموني.»

وفي عهد عمر لأهل إيليا ما نصه: «أعطهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسائر ملتهم. لا تسكن كنائسهم، ولا ينقص منها ولا خيرها ولا من صلبهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم.»

هذه الكلمات وغيرها من آلاف الأمثلة في آداب الحضارات القديمة وتاريخها، ترينا مدى ما وصل إليه الشرقيون في قديم الزمان من ديمقراطية تكاد تكون كاملة، سواء كان ذلك في نظام الحكم أو في نظام الأسرة وفي نظم المجتمع، وإننا لنجد في الحضارة الإسلامية، أيام الخلفاء، وفي عهود كعهد عمر بن عبد العزيز ومحمود نور الدين زنكي صورًا رائعة للديمقراطية الحقَّة، ترينا أن الظلم الذي مر على الشرق في فترات معينة لم يكن خاصة من خواص الشرق — كما يظن بعض المتحاملين عليه — وإنما كان خاصة من خواص فترات الانحلال التي تمر بها البلاد وتنتهي إليها الحضارات؛ فإن ذكرنا جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك في الشرق، فعلينا أن نذكر حكام الغرب قبل النهضة، وحتى في فترات النهضة لم تخلُ أوروبا من دكتاتوريات بشعة اعتدت على أقدس الحريات.

نعم، لقد سيطر على بلاد الشرق حكام استبدوا بها، وسلبوا أموالها، ونكَّلوا بها أيما تنكيل، ورجال الدين يدعون لهم على المنابر، ويلقبونهم بالملوك الصالحين، والفنانون والأدباء لا عمل لهم إلا النفاق والملق والاستجداء، فانخلعت لذلك قلوب الناس أمام

الخلفاء والأمراء والولاة، وانتقل ذلك إلى من هم أدنى منهم. فرئيس المصلحة مستبد على مرءوسيه، والمدير مستبد على المآمير، والمآمير على العمَد، والعمَد على الفلاحين والضباط على الجند، والجند على الباعة المتجولين إلى آخر هذه المظاهر، فكل مستبَد به ممن فوقه مستبِد على من دونه، فهو ينتقم لاستبداد الأعلى بالاستبداد على الأدنى — نعم كل هذا يحدث في الشرق؛ ولكن ألم يحدث مثل ذلك في الغرب قبل أن ينعم بما ينعم فيه الآن من بعض الديمقراطية؟ ألم تمر على ذلك الشرق المستعبَد فترات عرف فيها العدل؟

إذن فالمسألة ليست مسألة شرق ولا غرب، وإنما هي حضارة تأتي ورخاء في البلاد يعم، فتتفتح الأذهان، وتنشط النفوس للمطالبة بحقها وإيقاف الظالم عند حده.

إن آثار استبداد الماضي لا تزال عالقة بأذهان الشرقيين، وهي من غير شك تعوق فكرة التقدم على أساس ديمقراطي، ولكن الشرق آتٍ على حضارة جديدة قوية، ومع استمرار التقدم وازدياد الرخاء يختفي الظلم، كما تختفي السلطة الاستبدادية الموروثة، فالمسألة مسألة درجات في الرقي الطبيعي لا مسألة شرق وغرب.

الفصل الثالث

الثقافة

نعني بالثقافة ما يشمل التربية في الأسرة وفي المدارس وفي الشوارع والمجتمعات، وأينما يكون الإنسان، وهي تختلف في الشرق عن الغرب من نواحٍ عدة.

منها اختلاف اللغة، فكل أمة تتعلم بلغة غير الأخرى، وكل لغة لها تأثير كبير في الأفكار والعادات وتكوين العقلية، فلو قارنَّا مثلًا بين اللغة العربية في العالم العربي، أو الأردية في الهند، أو الصينية في الصين، وبين اللغة الإنجليزية في بريطانيا أو الفرنسية في فرنسا، وجدنا أن كل لغة تطبع أهلها بطابع خاص، خصوصًا إذا فهمنا اللغة بمعناها الواسع حتى تشمل الأدب، فأدب كل أمة نتيجة بيئتها الطبيعية، ونظام حكومتها استبداديًّا كان أو ديمقراطيًّا.

ولغات الشرق عامة أقرب إلى بعضها منها إلى لغات الغرب، وكذلك الآداب إذ كانت بيئات أهل الشرق متقاربة وبيئات الغرب متقاربة أيضًا، وإن شئت فانظر إلى تأثير اللغة العربية والأدب العربي في العرب، تجد أن كثرة المديح والتزلف إلى المستبدين أثرا في أهلها، على حين نرى أن اللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي أثرا في الإنجليز أثرًا كبيرًا غير ذلك. وقد أفاض الأستاذ «تين» الكلام في تأثير البيئة الطبيعية والاجتماعية في أدب كل أمة، من ذلك أن العرب خاصة والشرقيين عامة، أميَل إلى النظر في الماضي، والأوروبيون على وجه العموم أميل إلى النظر في الحاضر والمستقبل، ومن أجل ذلك نرى أهل اللغة الواحدة أقرب إلى التفاهم فيما بينهم، وذوي اللغات المختلفة متباعدون في التفاهم؛ ولذلك أيضًا لم يستسغ العرب في أيام مجدهم الأدب اليوناني، كما استساغوا المنطق اليوناني والفلسفة اليونانية؛ لأن الأدب العربي كوَّن مزاج العرب على نمط خاص يخالف الأدب اليوناني، وإنما استساغوا الفلسفة والمنطق اليونانيين لأنهما يناسبان كل عقل وكل مزاج.

يضاف إلى ذلك أن الثقافة في الشرق متأثرة بالتعاليم الدينية، في حين أنها في الغرب متأثرة بالعلم غالبًا، والثقافة الشرقية متأثرة بميل الشرقيين إلى التقليد، على حين أنها في الغرب أميَل إلى الابتكار، فلا بأس عند الغربيين أن يغيروا منهج التربية إذا أظهر البحث فساده، ويضعوا منهجًا جديدًا؛ ولذلك اعتاد الغربيون تربية أولادهم حسبما تثبته نظريات التربية الحديثة. أما التربية في الشرق فتكاد تكون تربية موروثة، قَل أن يدخل عليها تغيير.

والفرق بين الشرق والغرب يظهر بوضوح في برامج المدارس، فالناشئون يتعلمون النحو والصرف على أساس تعاليم سيبويه التي لم تتغير إلا قليلًا، ويتعلمون الطبيعة والكيمياء حسب النظام الغربي وهو كل يوم في تغير، وذلك مما يسبب الاضطراب في تكوين العقل. ومن الأمثلة على ذلك أيضًا المقارنة بين التعليم في الأزهر والتعليم في المدارس المصرية والتعليم في المدارس الأجنبية؛ فالأول يمثل التعليم في القرون الوسطى، والثاني يمثل الخليط بين طرق الشرق وطرق الغرب، والثالث يمثل مناهج الغرب البحتة.

ثم هناك فرق كبير بين الشرق والغرب، وهو كثرة عدد الأميين في الشرق وقلتهم في الغرب، وكثرة الأميين أو قلتهم تؤثران في مدى الثقافة، فالأبوان الأميان الشرقيان يملآن عقل الطفل خرافات وأوهامًا، وتسير الأم في رضاعته وتغذيته وتنظيفه حيثما اتفق، بينما الأم الغربية تكون في الغالب مثقفة إلى حد ما؛ فتتبع في تربية طفلها قواعد التربية، حتى لو كانت أمية تتعلم من وسطها ما يعوض أميتها.

وكما اختلفت الثقافة في الأوساط الشرقية، من متعلمين وأنصاف متعلمين وأميين، اختلفت الأمم الشرقية في درجة حضارتها، فهي في الحجاز غيرها في سوريا ولبنان ومصر، وهي في ذلك أشد اختلافًا من أمم الغرب.

كانت الثقافة إلى عهد قريب في الشرق مبنية على الدين بما دخل فيه من خرافات وأوهام، شأنه في ذلك شأن الحياة الاجتماعية على وجه العموم، ثم انضاف إلى الدين الشعور القومي، فأخذ الشرق يحتذي حذو الغرب في مثله العليا، ولا تزال الفكرة المؤسسة على الدين والفكرة المؤسسة على القومية متضاربتين، وقد تجد هذا التضارب في كل قطر من أقطار الشرق. قال خدابخش المسلم الهندي: «إن النشء الجديد في الإسلام يفكر تفكيرًا قوميًّا أكثر منه دينيًّا.» وكذلك انقسم المصلحون أيضًا قسمين: مصلحون يبنون إصلاحهم على الإصلاح القومي؛ كمدحت باشا وخير الدين التونسي، والسيد أمير علي، ومصلحون آخرون يؤسسون إصلاحهم على الدين كمحمد بن عبد الوهاب، فلما تغلغل أثر الغرب في الشرق، رجحت كفة القومية.

وعلى كل حال انتقل الشرق في ثقافته جملة انتقالات: فانتقل في أول الأمر على يد جماعة متنورين، تأثروا بالغرب وتعاليمه فأخذوا ينشرون تعاليمه بين قومهم، وكان من أول هؤلاء السيد أحمد خان في الهند إذ أنشأ مدرسة «عليكرة» على أساس غربي، وكما فعل محمد علي في مصر في تأسيس مدارس على النمط الأوروبي، وكان أول جيل من متخرجي هذه المدارس يعترف بتفوق أوروبا، وأمنيته الكبرى أن يجد مجتمعًا متقدمًا في الشرق له حضارته الخاصة تعادل حضارة الغرب، ولكن هؤلاء وجدوا أمامهم متعصبين محافظين لا يريدون أن يفسحوا المجال لهؤلاء المتقدمين، كما وقف أكثر رجال الأزهر أمام المدارس الحديثة، وكما وقفوا ضد ما كان يجريه طلبة الطب وأساتذتها على الموتى من تشريح، حتى اضطروا أحيانًا إلى أن يشرِّحوا الجثث في الخفاء، وقد استعان هؤلاء المحافظون بآراء كُتَّاب؛ كتولستوي ورسكن، شنوا الغارة على الثقافة الأوروبية، ولكن من حسن الحظ أن المعركة انجلت عن نصرة الأولين على الآخرين، فلما انهزموا اضطروا رغم أنوفهم على أن يسايروا الحركات التقدمية، فليس أحد يقول الآن بحرمة التشريح، ولا بضرورة التوضؤ من الميضة حتى يكون صحيحًا، وتطور الأدب القديم إلى الأدب الحديث، يحذو حذو الغرب أحيانًا، وأحيانًا ينفرد بشخصية شرقية حديثة خاصة به. حتى كان قصارى الأدباء المحافظين أن يقتبسوا من الأدب القديم أسلوبه ومن الأدب الحديث موضوعه، وأدرك المحافظون من الأدباء ما أدرك غيرهم، فانهزموا وتراجعوا.

وغلب تأثر الثقافة بالفكرة القومية، تقليدًا للغرب، وكلنا نعلم أن الغرب يعتمد في استعماره على هذه الفئات التي تمجِّد الغرب وتقتبس منه، علمًا منه بألا تفاهم إلا بوحدة الشرق، ومن أجل ذلك تسابق الإنجليز والفرنسيون في نشر ثقافتهم، لاعتقادهم أن من تثقف بلغة تعصب في الغالب لأمتها، ولكن خاب ظنهم أخيرًا؛ فإن من تثقف بالثقافة الأجنبية آمن بالحرية وكافح ضد الاستعمار وحاول التخلص بكل الوسائل من نير الأجنبي؛ ولذلك نرى أكثر الزعماء الوطنيين ممن تعلموا في البلاد الأجنبية كغاندي ونهرو والسيد أمير علي ومصطفى كامل ونحوهم.

كما استعان الغربيون أيضًا على الاستعمار بفئة الرجعيين؛ لأنهم في نظرهم يؤمنون بفكرة القديم على قدمه، ويودون إبقاء ما كان؛ من غير أن يحركوا ساكنًا، وهذا من غير شك يخمد النفس، ويبعدها عن الثورة ويمكن الاستعمار من تغلغله.

ومن أساليب الاستعمار العمل على نشر الجهل والأمية، فإن اضطروا إلى نوع من التثقيف اختاروا أبسط أنواع الثقافة، ومن أجل ذلك وقع الصدام بين اللورد كرومر

والمتنورين من المصريين أمثال سعد زغلول وقاسم أمين، فكان اللورد كرومر يفضل نشر التعليم الأولي ويحارب التعليم الجامعي، والآخرون بالعكس لأن انتشار التعليم الأولي لا يضر الإنجليز ويمكِّن لهم في الأرض، وانتشار التعليم الجامعي يزلزل أقدامهم ويوجِد منارات يهتدي بها المواطنون.

وقد تراجع بعض المثقفين ثقافة غربية من الشرقيين؛ إذ رأوا في الثقافة الغربية عيوبًا وفي الثقافة الشرقية القديمة مزايا، ونادى بذلك بعض الغربيين أنفسهم خصوصًا بعد الحرب العالمية الأولى. وها نحن نسمع الآن نقدًا شديدًا من أعضاء اليونسكو على بناء التاريخ وتعليمه على الحروب وتمجيد أبطالها، ونادوا بإزالة ذلك كله وبناء تعليم التاريخ على الحضارة وانتشار العلوم، كما أدركوا أن الثقافة الغربية وإن تفوقت في الفن والصناعة والعلم، فهي خالية من الروح، وأن خيرًا للشرقيين أن يستمدوا من الغرب فنه وعلمه ويستمدوا من الثقافة القديمة روحها. وعلى الجملة فقد رفض الشرقيون التعاليم الغربية ككل، وربما ساعدهم على ذلك ما رأوا من التباين بين أقوال الغربيين، فكثيرًا ما ينادون بالمبادئ الإنسانية وقت الشدة وينسونها وقت الرخاء. فتعِد إنجلترا مثلًا الملك حسينًا باستقلال البلاد العربية بعد الحرب، وتتفق في نفس الوقت سرًّا مع فرنسا على تقسيم البلاد العربية إلى مناطق نفوذ بينهما، وإذا تغيب جندي بريطاني لسبب من الأسباب تنمر الإنجليز وهددوا، وإذا قتل الفرنسيون آلافًا من المراكشيين والمغاربة، لم يحركوا ساكنًا. كل ذلك أفقد الشرق الثقة في الغرب، وهم كما فقدوها في السياسة فقدوها في الثقافة؛ لأن الثقة لا تتجزأ.

وقد كان للبعثات البروتستانتية أثر كبير في إيقاظ الشرق؛ لأن مبشريها كانوا أول من نشر التعليم فيه، وكثير من قادة الرأي وزعماء الإصلاح تخرج على أيديهم، وقد كان المعهد الأمريكي في طهران مصنعًا تُصنع فيه الرجال، ويمكن تطبيق هذا على كافة المعاهد التبشيرية. وقد أدرك المبشرون أن التعليم ميدان فسيح للتبشير، وأمدتهم الشعوب وخصوصًا أمريكا بأموال كثيرة لتحقيق غرضهم فأخذوا ينشرون العلم بين الشعوب الشرقية، متخذين العلم وسيلة للتنصير. قال بعضهم: «إن أهداف المدارس والكليات التي تشرف عليها الإرساليات هو التنصير، حتى الموضوعات الدنيوية التي تُعلم فيها تحمل معها الآراء النصرانية.» واتخذوا من المدارس التي نشروها، كما قال بعضهم، أسفينًا؛ لأن التعليم أنفع وسيلة يستغلها المبشرون لتنصير الأفراد، واشترطوا في الأساتذة المدرسين أن يكونوا مسيحيين ما أمكن؛ لأن دين المعلم يؤثِّر ولو من طريق

خفي في تلاميذه؛ ولذلك أيضًا ترفض المدارس التبشيرية أن تتقيد بالمنهج الرسمي للبلاد؛ لأن أهم ما تقصده التعليم الديني. وقد امتلأ المبشرون حماسة جعلتهم يتحملون أشق المتاعب في سبيل التبشير.

وكان العلم في أول الأمر قليل الانتشار في البلاد الشرقية، والكتب قليلة نادرة، فانتهز المبشرون هذه الفرصة، وأكثروا من المدارس التبشيرية، ونشرت تعاليم التوراة والإنجيل أول الأمر، فلما وجدتها لا تكفي درَّست التاريخ والجغرافيا بعد أن صبغتهما بالصبغة المسيحية، وحرَّفت حوادث التاريخ وأكثرت من الطعن في الأديان الأخرى، لتكرِّه الناس في دينهم وتحببهم في المسيحية. ورأوا أن من خير ما يساعدهم اجتهادهم في مدارس للبنات؛ لأنهن سيكنَّ بعد أمهات. وقد نشط المبشرون نشاطًا غريبًا أول الأمر حتى كان عدد التلاميذ في المدارس الأمريكية البروتستانتية في عام ١٨٩١ حول ١٥ ألف طالب، وفي سنة ١٩٠٩ كان للأمريكان وحدهم بالشام ١٧٤ مدرسة منتشرة في المدن والقرى، وافتتحوا كل فرع من فروع المدارس، من رياض الأطفال إلى التعليم العالي في الجامعات، فأنشئوا الجامعات في بيروت وفي القاهرة وفي استانبول، وأجبروا المسلمين على دخول الكنيسة في مدارسهم، فلما أضرب الطلبة قال قائلهم ما معناه «إننا نأخذ الأموال من المتبرعين بعاطفة نشر الدين، فإذا أبطلنا الدين من المدارس لم نجد من يتبرع له».

ولكن لم ينجح المبشرون كثيرًا في نشر الدين المسيحي مع كثرة ما بذلوا، خصوصًا بين المسلمين، فقد يمر العام أو العامان حتى يتنصر مسلم واحد.

ووضع المبشرون كذلك أنفسهم لخدمة السياسة، فالمبشرون الأمريكيون يبشرون بأمتهم، وكذلك الإنجليز والفرنسيون.

وقد ارتابت تركيا في حركات التبشير، فراقبت حركاتهم وضيقت عليهم، وخصوصًا اليسوعيين؛ لأنهم يعملون للسياسة الفرنسية، والبروتستانتية لأنهم يتراءون وراء العلم البريطاني، وكانوا كلما وجدوا صعوبة لجئوا إلى قناصلهم، فما وسعها إلا أنها منعت الأطفال من دخول مدارس المبشرين، وجعلت التعليم في هذه المدارس قاصرًا على المسيحيين، وأخيرًا في عام ١٨٨٨ أغلقت الدولة العثمانية مدارس المبشرين الأمريكيين بتاتًا.

ومن أعمال المبشرين خلقهم في البلاد التي هم فيها أسبابًا تثير الفتن وتؤدي إلى الحروب، حتى بين الأمم الغربية بعضها وبعض.

ومما يؤسف له أن أكبر عداء المبشرين إنما هو للمسلمين؛ حتى إن عداءهم في هذا الباب أكثر من عدائهم للوثنيين، ويظهر أن السبب يعود بعضه إلى ما كان في الحروب

الصليبية، وبعضه إلى ما في الإسلام من حث على الجهاد وعدم الخضوع للأجنبي. على كل حال ومع كل هذا الفساد، كان للمبشرين فضل في نشر التعليم.

وفي بدء القرن العشرين كان في الشرق نظامان للدارسة يسيران جنبًا إلى جنب؛ النظام المحلي في الدول الإسلامية والهند والصين؛ إذ كوَّن الرجال الدينيون الكلاسيكيون أسسًا للتعليم من أول مراحله إلى آخره، فكان يمثل ذلك الكتاتيب حتى الأزهر قبل التغيير الجديد، والنظام الحديث وكان مبعثه الجاليات الغربية، والاستعمار الأجنبي، وهذا النظام يقضي بوجوب تعليم لغة أجنبية واتخاذها لغة للتعليم بأكمله، ولم يهتم بالثقافة المحلية إلا قليلًا. وكان النظامان منفصلين، ولم يستطيعا أن يحققا الأغراض الاجتماعية والسياسية التي ظهرت على ممر الأزمان، فكانا يفقدان القدرة على اجتذاب الجمهور، حتى وُجدت أخيرًا محاولات ترمي إلى مزج النظامين، فتجد في المدارس الوطنية مقتبسات من القديم والجديد، ونظير ذلك ما حدث في اللغة، فقد أُدخل فيها كلمات حديثة، كما فعلت أوروبا في العصور الوسطى، وعن طريق إدماج بعض الكلمات أمكن اللغات الأدبية أن تساير النهضة الأوروبية، وقد حدث هذا في كل لغة شرقية تقريبًا.

فاللغة التركية مثلًا كانت قد امتلأت بالكلمات العربية والفارسية وتأثرت بالآداب الإسلامية ولكن بالنعرة القومية حذفت اللغة التركية كثيرًا من الألفاظ العربية والفارسية وتقربت للغة الشعب، وكادت الكتاتيب التي على النمط القديم أن تتلاشى، وحل محلها مدارس على النمط الحديث، والأزهر في مصر الذي كان يذكرنا دائمًا بالتعليم في القرون الوسطى أصبح يقلد الجامعات الحديثة في إدخال العلوم الحديثة، وفي نظم الإدارة، ونادى منادون بتغيير لغة الكتابة، وإحلال الحروف اللاتينية محل العربية، وعلى الجملة فقد أصبحت الحالة في الشرق تمر بمحنة خطيرة، ونلاحظ أن الجديد دائمًا يكتسح القديم، وربما كان نتيجة هذا الكفاح بين القديم والجديد محاولة المزج بينهما وإرضاء للمعسكرين، وهكذا الشأن في المسائل الاقتصادية والاجتماعية، فكما وجدت الثنائية في الثقافة، وجدت في أكثر مرافق الحياة، كالقضاء بين محاكم شرعية ومحاكم وطنية، والأدباء بعضهم يحتذي حذو الأدب القديم، وبعضهم يحتذي حذو الأدب الأوروبي، وحتى الناس في ملابسهم بعضهم يلبس الملابس الأوروبية وبعضهم يلبس الملابس الوطنية، وقد نشأ من هذه الثنائية اختلاف في العقلية حتى يكادوا لا يتفاهمون، ويشيع مركب النقص عند أهل النظام القديم أمام أهل النظام الحديث، كما يشيع الشعور بمركب النقص عند أهل النظم الحديثة أمام الأوروبيين؛ لأنهم يدركون أنهم ليسوا إلا مقلدين.

الفصل الرابع

الحظ والقدر في الشرق والسبب والمسبب في الغرب

مما يميز الشرق عن الغرب شيوع فكرة الحظ والقدر في الشرق، وشيوع فكرة السبب والمسبب في الغرب. ترى في الشرق الإيمان بالحظ والقدر في كل شيء، فهذا سعيد وهذا شقي بالقدر، وهذا غني وهذا فقير بالقدر، وإذا خطى شخص خطوة فأصابه خير أو شر نسبه إلى القدر أو الحظ، والمريض يمرض ثم يصح أو يموت بالقدر، وهكذا في سلسلة الحوادث. وعقل الغربي في ناحية أخرى، فالفرد يكون شقيًّا أو سعيدًا لسبب أو أسباب ينسب ذلك إليها، من تربية حسنة أو سيئة، ووسط صالح أو فاسد، وأصدقاء يعاشرهم صالحين أو سيئين، والغنى والفقر سببهما نشاط العامل أو كسله، واختياره للعمل الذي يلائمه أو لا يلائمه، ونظام البيئة الاجتماعي صالح أو فاسد، والأرض صلحت للزرع أو ساءت لوجود الحشرات، أو الجو الذي يلائم أو لا يلائم، لا لشيء من الحظ أو القدر، وقد يعجز عن العلة فيقول: إن لذلك النجاح أو الفشل سببًا غير معروف فلأجتهد في أن أعرفه.

وربما كان سبب ذلك بناء الحياة في الشرق على مجموعة من الأوهام والخرافات، وإن لم يكن ذلك من الدين نفسه، فالدين الإسلامي يأمر بالعمل ويطالب بالجد، ويقول اعقلها وتوكل، وإن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، ولكن جاء أصحاب المذاهب كالأشعري يقولون إن النار لا تحرق، والماء لا يروي، ولكن الله يوجِد الإحراق عند وجود النار، والري عند وجود الماء، ومثل هذه التعاليم توجد في معتنقيها إيمانًا بالقدر لا حد له.

وفي نظير ذلك انتشرت في الغرب التربية العلمية، وهي عادة توجد عند معتنقيها بناء الحياة على السبب والمسبب، فالحرارة تسبب امتداد الأجسام، والبرودة تسبب انكماشها،

والمرض يصيب الإنسان لميكروبات أصابته، فإذا احتاط من هذه الميكروبات لم تنله، وإذا عُرفت فليعطَ المريض ما يشفي منها.

كل هذا سبب تواكلًا وتكاسلًا في الشرق، ونشاطًا في الغرب.

ومما يمثل الاعتماد على القدر حكاية يحكونها؛ أن رجلًا في قرية ضاعت فرسه، فذهب جيرانه ليعزوه، فقال لا تعزوني فليس أحد يعرف الخير من الشر، ثم وجدها، فذهبوا يهنئونه فقال مثل ذلك، ثم في يوم من الأيام ركب ابنه الفرس فوقع من فوقها فكسرت ساقه فذهبوا ليعزوه، فقال ذلك أيضًا، وصادف أن دخلت الأمة في حرب، فأخذ الملك يجمع الشباب الأصحاء ويقذفهم في الحرب فترك ابن الرجل، فذهب جيرانه يهنئون، فقال لهم «لا تهنئوني ولا تعزوني.» فهذه الحكاية تفسر فلسفة الاعتماد على القدر، وبناء على ذلك لا ينسب الشرقيون النجاح والفشل إلى شيء فيهم، إنما ينسبونه للقدر.

ويظهر أن كلًّا من الجانبين مسرف، فالاعتقاد بالقدر اعتقادًا صحيحًا لا يصح أن يمنع من العمل؛ لأن النتيجة مبنية عليه، وواضح أن العمل والمهارة والذكاء تسبب النجاح غالبًا وعكسها يسبب الفشل غالبًا. وعيب الإيمان بالسبب والمسبب أنه في بعض الأحيان تُتخذ كل الوسائل لنجاح المشروع في دقة زائدة ومهارة فائقة ثم يفشل ولا يُعرف السبب، وقد يكون مشروع لم يدرس مثل هذا الدرس ولم يقم به مثل هؤلاء الرجال الأكفاء، ثم ينجح مصادفة، وقد تكون أوراق اليانصيب مائة ألف أو أكثر، فيكسب الجائزة الأولى أحد الناس، وليس بأذكاهم ولا أمهرهم، وتعليل هذه الأحداث وأمثالها تعليلًا علميًّا صعب إن لم يكن مستحيلًا. فالطريقة المثلى إيمان بالقدر في حدود لا تمنع الجد والنشاط، والإيمان بالسبب والمسبب في حدود تجعل مجالًا للحظ والقدر، وهيهات أن يكون ذلك؛ لأن الناس جُبلت على الإفراط.

وتعجبني حكاية ظريفة قرأتها من قديم، وهي أن ملكًا ووزيرًا تناقشا هل هناك حظ أو لا، أنكره الملك وأقره الوزير، فلما طال الجدل بينهما قال الملك للوزير: أقم لي الدليل على وجود الحظ، فانتظر الوزير غياب الشمس، وألقى القبض على اثنين يسيران في الطريق، وأدخلهما في حجرة مظلمة، وكان أحدهما نشيطًا والآخر كسولًا، فأما النشيط فقام يتحسس ما في الحجرة فوجد وعاء فيه حب، فوضع بعضه في فمه فوجده حمصًا، ومن حين لآخر كان يجد حصًا يرميه للكسول، فلما أصبح الصباح وملأ ضوء النهار الحجرة ظهر أن هذا الحصا ماس، وتكشف الأمر عن نشيط أكل حمصًا، وكسول كسب ماسًا. فذهب الوزير إلى الملك فرحًا بما صادفه من برهان، فقال الملك قولة حكيمة: «آمنت بوجود الحظ ولكن بمقدار ما يوجد ماس في حمص في وعاء.»

فالمثل الأعلى رجل يبني حياته على السبب والمسبب، ولا يكفر بالقدر، ولكن لا يبني عليه شيئًا.

ونحن إذا قلنا إن هناك فرقًا بين الشرق والغرب في ذلك، فليس معنى ذلك أن كل شرقي بنى حياته على القدر البحت، ولا كل غربي يبني حياته على السبب والمسبب، ففي الشرقيين من يدينون بالسبب والمسبب ويبنون حياتهم عليهما، وفي الغربيين من يتكلون على الحظ، وإنما نقرر هذا المبدأ اعتمادًا على الأغلبية من الجانبين.

الفصل الخامس

الحياة الاجتماعية

تختلف الحياة الاجتماعية في الشرق عنها في الغرب بحكم اختلاف كل العوامل الاجتماعية من بيئة ولغة ودين وتاريخ ونوع حضارة وغير ذلك. كتب تاغور إلى صديق له:

أكتب إليك من لندن ... وليس فيها سكر ولا زبد ولا وقت فراغ ولا مكان هادئ تستطيع فيه أن تستجمع أفكارك أو تعرف نفسك، إني أعيش الآن بين رجال الأعمال الذين ليس لديهم الوقت للتفكير إلا في العمل ... إن قلبي يبحث عن غذاء ولكن بلا جدوى، إني أحلم دائمًا ببلادي وما فيها من حياة سهلة بسيطة. إني لا أستطيع أن أفهم كيف يرضى القوم هنا أن يعيشوا في كل هذه القيود؟ ... إنهم يضخمون الحياة من حولهم آملين في مستقبل أسعد، وإني أخشى على الشرق هذا الفيضان المادي الذي يأتي من الغرب فيفقد حكمته البسيطة التي هي الحق ... هؤلاء الذين يعيشون ليمتلكوا كل ما هو مادي ثم يصبحون بعده عبيدًا لهذه المادة. القوة هنا للسلاح.

أما نحن فنبحث عنها في شيء آخر، هذا الشيء هو ملكنا لأنه ينبع من داخلنا، أما هؤلاء الذين يبحثون عن القوة المادية فهم لا يعرفون مقدار ما يفقدون. كيف يعرفون أنفسهم؟ ليس عندهم الوقت الكافي لكي يدركوا أنهم غير سعداء، حتى أوقات فراغهم إنهم يسرفون في قتلها في الملاهي أحيانًا وفي الرياضة أحيانًا؛ خوفًا من أن يعطوا أنفسهم وقتًا يجعلهم يكتشفون فيه أنهم غير سعداء، إنهم يخدعون أنفسهم، ولكي يبعدوا عن أذهانهم هذه الخدعة يضعون لأنفسهم مقاييس تناسب هذه الحياة التي يحيونها، فالثراء عندهم قوة لا تعادلها قوة، وقتل أعداء الوطن فضيلة لا تفوقها فضيلة، والفرد تِرس في آلة المجتمع.

الحياة هنا ضخمة، والرخاء مزدهر، لكن ليست الحياة في هذه الضخامة وهذا الرخاء ولكنها في البساطة والسهولة.

... ولكن الحياة في البساطة والسهولة.

وتعجبني حكاية قرأتها تمثل الحياة الأوروبية وهي أن شابًّا قال للسيدة التي يقيم عندها «إني أصبح في الصباح لأغسل وجهي وأبدأ في حلق ذقني؛ وإذ ذاك أحفظ كلمات من اللغة الألمانية، ثم أجلس للفطور فأتعلم اللغة الإسبانية، ثم أذهب إلى عملي وهناك أقرأ اللغة الفرنسية.» وهكذا ظل يحكي لها ما يفعله منذ أن يصبح إلى أن ينام من تعلم لغات وأعمال وأنواع من الدراسات. فالتفتت إليه السيدة وقالت: «كل هذا حسن ولكن متى تجد نفسك؟»

هؤلاء الأوروبيون يعملون كثيرًا ويصرفون كل أوقاتهم في عمل ولكن متى يجدون أنفسهم؟ إن التأمل والتفكير والخلو إلى النفس والاستمتاع بسماع صوت الضمير مزية من مزايا الحياة الشرقية. قال أحد فلاسفة الصين عن الحضارة الأوروبية «إن الفاشية والشيوعية نتاج لنوع واحد من التفكير، فليس هناك أقرب إلى الشبه للعقل المتعصب لليمين من هذا العقل المتعصب لليسار، كلاهما يعبد القوة، ويقدس المنطق، وهما أصل الفساد. إن الرجل المنطقي مخطئ، وهو غير إنساني، إنما الرجل غير المنطقي فهو يقول دائمًا ربما أكون مخطئًا ولهذا فهو دائمًا مصيب. لعل أهم العوامل التي تصبغ

أوروبا بالصبغة غير الإنسانية هو تفكيرها المنطقي في السياسة، والواقع أني لا أخاف من مبادئ الفاشية والشيوعية بالقدر الذي أخافه من الروح المنطقية التي يعلمون بها النشء، فيمزجون الفن بالدعاية والعلم بالوطنية والحكومة بالدين وحقوق الدولة بحقوق الفرد.

إن الحضارة الأوروبية لم تقدم للإنسانية إلا الصعوبات في الحصول على الطعام وإلا فما كل هذه المتاعب التي نجدها في الحصول عليه، في حين أن الحيوان نفسه لا يجد نصف هذه المتاعب؟ إن الأوروبيين أناس يرهقون أنفسهم في العمل ويفخرون بأن ليس لديهم وقت، إذن فماذا يملك أولئك القوم أن لم يملكوا وقتهم؟

الحيوان في الغرب ... في سجن الآلة.

يرى الصينيون تناقضًا كبيرًا بين كلمتي مشغول وحكيم، فالمشغول لا يكون حكيمًا والحكيم لا يكون مشغولًا، والحكمة لا تُصنع، وإنما هي تأتي من الوقوف عن العمل بعض الوقت للتأمل في الحياة.

ليس بضروري أن تكون شخصًا مهمًّا أو مفيدًا جدًّا، فالخنزير يذبح إذا زاد شحمه، ونحن نرى أن البلاد التي يزيد إنتاج أهلها تحطمهم الحروب، بينما يسعد الشرقيون بالارتخاء أحيانًا.»

طالما تمنى بعض الفلاسفة عالمًا يجمع بين ماديات الغرب وتأمل الشرق، وكان منظرًا جميلًا عندهم الإسكندرية في عصورها الأولى إذ جمعت بين تأمل الشرق وماديات الغرب.

ولكن من غير شك لا يزال الغرب يمتاز ببناء حياته على العلم بينما الشرق كثيرًا ما يبني حياته على الخرافات، وأحيانًا يسير في عمله حيثما اتفق من غير دراسة ولا بناء على نتيجة ثابتة.

الغربي يعلِّم أبناءه على ما اكتشف من قوانين التربية، ويتاجر على ما اكتشف من قوانين الاقتصاد، وهكذا وبينما لا يزال الشرق يعمل إما على قاعدة موروثة قديمة أو على وهم تُوورث أو حيثما اتفق، بدعوى الاتكال على الله، وكثيرًا ما يقولون «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم لمهتدون.»

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية في الغرب ظهور أثر المرأة فيها، فهي زهرة المجالس وناشرة المرح فيها، والقيِّمة على بناء أخلاق أولادها بناء مؤسسًا على العلم كما ذكرنا، وهي التي تحمل عبء الرجال في أيام الحرب، وتشاركهم حمل العبء في أيام السلم. أما في الشرق فالحياة مظلمة لأنها حُرمت الاستضاءة بنور المرأة، ولم تحمل عن الرجل العبء في الحياة إلا في القليل النادر.

ومما يلاحَظ أن الروح في الغرب مرحة متفائلة مهما تكن العوائق ومهما تكن العقبات، والروح في الشرق منقبضة أميل ما تكون إلى الحزن، وربما يلاحَظ ذلك كثيرًا في الشبان الذين نرسلهم في بعثة إلى الغرب، فهم يظهرون بمظهر الحزن إلا إذا اختلطوا طويلًا بالغربيين، فإذا عادوا إلى بلادهم عادوا إلى عادتهم، وربما كان ذلك نتيجة للظلم والاستبداد اللذين لاقوهما من الحكام، ومن تسلط الطبقة العليا على الطبقة السفلى. قد تعجب من غناء الشرقيين وحبهم للموسيقى وحبهم للنكات وغرامهم بالفكاهات، ولكن لعل ذلك كله مما تدعو إليه الطبيعة للتعويض عما هم فيه من البؤس؛ ولذلك ترى أبأس الناس أحبهم إلى هذه الضروب من التسلية.

يضاف إلى الفروق ما تُخلفه الأديان المختلفة من نتائج مختلفة، فيفشو في الشرق الدين الإسلامي، ودين كنفوشيوس في الصين، والبوذية في الهند وغير ذلك، ويفشو في أوروبا الدين المسيحي، ولا شك أن كل دين من هذه الأديان يطبع أتباعه بطابع خاص. وكذلك اللغة لها تأثير عظيم في الأمم، فلغات الشرق لها أثرها كذلك، ومن هذا القبيل الأدب، فلكل أدب طبيعة خاصة ناشئة من بيئته، ولكل لغة وأدب أثر في الأمة غير أثر

الآخر، أذكر أني كنت في مجلس الجامعة مدة سنين وكان في المجلس مصريون وإنجليز، وكانت المناقشة تدور أحيانًا باللغة العربية وأحيانًا باللغة الإنجليزية، فإذا تناقشنا باللغة العربية كثر الاستطراد والخروج من باب إلى باب، وإذا كان الكلام باللغة الإنجليزية قَل الاستطراد وانحصر الكلام في الموضوع. وكثيرًا ما رأينا أن الرجل قد يكون شاعرًا باللغة العربية وباللغة الفارسية معًا؛ فإذا شعر باللغة العربية كان ذلك على نمط خاص، وإذا شعر باللغة الفارسية كان على نمط آخر، وإذا كان هذا في أمتين شرقيتين فكيف بأمة شرقية وأخرى غربية؟ ويظهر ذلك حتى في الأشياء الدقيقة جدًّا، فغرام اللغة العربية بتقديم الفعل على الفاعل في الجملة إلا في القليل النادر، وغرام الإنجليز بتقديم الفاعل على الفعل إلا في القليل النادر لا يخلو من سبب عميق.

أضف إلى ذلك أن الحياة الاجتماعية لكل أمة تتأثر إلى درجة كبيرة بتاريخها من ظلم أو عدل، ومن استسلام أو مقاومة، ومن انتصار في الحروب أو انهزام. ثم إن الأمم قد تُرزق بزعماء أقوياء يغيرون مجرى التاريخ، بينما أمة أخرى لم تُرزق هذه الزعامة فيسير تاريخها على نمط واحد، ومن ثم ترى الفروق واضحة بين الأمتين. لقد غيَّر بيكون مجرى التفكير العلمي، وغير روسو وفولتير نمط الأمة في الاستسلام، وغير كرومويل عادة الخضوع للملوك، وهكذا فوجود الزعماء في أمة دون أخرى مما يسبب الفروق بين الأمتين.

ومما يلاحظ أن الشرق كان إلى عهد كبير لا يشعر بحقوقه ولا واجباته، فلما ارتقى وعيه شعر بالحقوق أكثر مما شعر بالواجبات، وهذا طبيعي؛ لأن الحقوق مطالب والواجبات تكاليف، والمطالب ألذ من التكاليف، وربما كان أمرًا طبيعيًّا في الأمم أن الشعور بالحقوق يسبق الشعور بالواجبات. ولعل من أهم الفروق الاجتماعية الحالة الاقتصادية، فمتوسط دخل الفرد في الغرب أكثر من متوسط دخل الفرد في الشرق، وما يخص العائلة الأوروبية أكثر مما يخص العائلة الشرقية خصوصًا مع سيرهم على مبدأ ضبط النسل. وللحياة الاقتصادية أثر كبير في الأسرة والأفراد. فالأسرة التي يكثر فيها الدخل أو يعتدل تستطيع أن تعيش عيشة اجتماعية أرقى وتتعلم تعليمًا أرقى وتفهم حقوقها وواجباتها فهمًا أرقى، وتستطيع أن تعيش عيشة أصح وهكذا؛ لأن المال عصب الحياة، وأعطني مالًا أعطك علمًا وصحة وتمتعًا بكل مرافق الحياة.

والآلة الحكومية في الشرق مصابة بالعقم والبطء، والفوضى والمحسوبية وكثرة الجدل، إذا طلبت طلبًا في أمر من الأمور نام نومًا عميقًا مدة طويلة ما لم تسعَ وراءه

سعيًا حثيثًا بشتى الوسائل، فقد بنوا سيرتهم على مبدأ عدم الثقة، فالعمل البسيط لا يمر بسهولة بل لا بد من مراجع ومراجع للمراجع حتى ينتهي إلى الرئيس، وذلك لكثرة ما حدث من الخيانة، ومع كل هذا التشديد لم يسلم الأمر من وقوع خيانات تُكشف الفينة بعد الفينة. يضاف إلى ذلك الهرب من المسئولية، فكل يريد أن يلقي العبء على غيره ليخلص نفسه مهما سبب ذلك من تعطيل، وعندي أن من الخير بث الثقة بين الناس وبناء الأعمال على هذه الثقة ولو ضاع بذلك ملايين الجنيهات. إنه من الخير — مثلًا — أن نبيح القراءة في المكاتب من غير تقييد ولو ضاع من أجل هذه الحرية كتب بعشرين أو خمسين جنيهًا في العام.

نعم إن في الغرب بعض هذه العيوب ولكنها لم تبلغ جسامتها في الشرق، وتاريخها يدل على أنها مرت بالدور الذي يمر به الشرق ولكن الغرب تخلص من كثير من رذائلها.

كذلك يفضُل الغربيون الشرقيين في العناية بالنظافة ولو ظاهرًا، نظافة الأكل ونظافة المسكن، وإذا رتبنا الدول الشرقية في العناية بالنظافة ربما عددنا لبنان أولها ثم سوريا ثم العراق ثم مصر ثم إيران.

ودين الشرقيين أعمق في نفوسهم، ويكاد يتغلغل في جميع أعمالهم وتصرفاتهم، بينما الدين عند أكثر الغربيين يكاد يكون ظاهريًّا فقط، وكما قال أحدهم إن أكثرهم يذهبون إلى الكنيسة كما يذهبون إلى التفرج على لعب الكرة أو سباق الخيل.

يفهم الغربيون من منطق الحوادث غير ما يفهمه الشرقيون؛ ولذلك تختلف تصرفاتهم وسلوكهم أمام الأحداث. ويحتاج كثير من الغربيين إلى شرقي يشرح لهم وجهة النظر الشرقية في بعض تصرفهم. أذكر أني قرأت لأستاذ صيني الفرق بين الفلسفة الشرقية والغربية، قال إن الفلسفة الغربية أعمق والفلسفة الشرقية أقرب إلى الحياة، فمثل الفيلسوف الغربي مثل الغواص، ومثل الفيلسوف الشرقي مثل العوام الذي يحتاج كل حين أن يطفو إلى السطح.

وهناك فرق آخر وهو أن فلسفة الغرب أقرب إلى التخصص حتى لقد لا يعرف الفيلسوف في مادته شيئًا عما تخصص فيه الآخر، والفلسفة الشرقية أقرب إلى التعميم.

ويذكرني هذا بقصة طريفة: أن عائلة ملكية انهارت فذهبت طهاتها وخدمتها كل مذهب فوقع أحد الطهاة في نصيب أحد الرعية، فظن أنه يتقن الطهي إلى أقصى حد؛ إذ كان طاهيًا عند الإمبراطور، ودعا يوم بعض أصحابه ليأكلوا أكلًا ملوكيًّا، ونادى الطاهي

وأخبره الخبر فقال: «لا يمكنني ذلك ...» فقال الداعي: كيف وقد كنت طاهي الإمبراطور؟ قال: إنني كنت أحد طهاة فرقة وظيفتها أن تقطع البصل لمن يعملون السلطة!

لا يحب الشرقيون المغامرة كما يحبها الغربيون، فالشرقيون ألصق بالأرض، وإذا نُقل موظف من بلدة إلى بلدة أخرى بعيدة عنها عُد هو وأهله ذلك كارثة، وأكثروا من البكاء والعويل. ومن الغريب أن ذلك معروف أيضًا في تاريخ قدماء المصريين. على حين أن الغربي مغامر في تسلق الجبال وعوم الشلالات والقيام بالرحلات التي يكشف فيها جديدًا، أو يتعلم منها جديدًا، وكل يوم نسمع عن عبور بحر أو اكتشافات في مناطق مجهولة أو نحو ذلك.

وربما عُد من أسباب ذلك أن الشرقيين لم يكونوا حربيين في زمن طويل، والسلم يستلزم الإقامة، والحرب تستلزم البعد والاستهانة بالأرواح، وهما أساس المغامرة، وأذكر وأنا موظف في وزارة المعارف، أني كنت أرجى كثيرًا من مدرسين للانتقال من مدرسة في حي من القاهرة إلى مدرسة أخرى في حي آخر فيها ليكون بجوار بيته، وكنت أعجب من هذه الروح كل العجب.

ومن الغريب أيضًا أن يعد المصريون النقل من بلد إلى بلد بعيد كقنا وأسوان عقوبة من العقوبات على الموظف الذي أساء، حتى إن بعض المديريات السحيقة تئن بالشكوى مما فيها من موظفين نُقلوا إليها لسوء سيرتهم وارتكابهم الجرائم.

وقد شهد القرن الثامن عشر والتاسع عشر انتقال الشرق من حياة العصور الوسطى إلى حياة حديثة في كل شيء، وتكشف ذلك عن انحلال النظم الاجتماعية، والروابط العائلية القديمة، وانهارت السلطة الأبوية في الأسرة، وتداعى النظام الإقطاعي، بتأثير العوامل الاقتصادية والثقافية الغربية الجديدة. ونزلت عن مكانتها الطبقة الأرستقراطية وتقدمت الطبقة المتوسطة، وخصوصًا فئة الصحفيين والمحامين، وانتقلت القوة إلى الطبقة المتوسطة في تركيا ومصر، وتغلبت على البلاط؛ لأن الطبقة المتوسطة كانت أكثر وطنية. وفي تركيا تكونت سنة ١٩٢٣ الجمعية الوطنية من موظفين سابقين منهم ٤٩ ضابطًا سابقًا و٥٠ من رجال المحاماة والصحافة و١٨ من رجال الدين، يمثلون الطبقة المتوسطة، وفي مصر تكونت الأحزاب الوطنية من اتحاديين يمثلون البلاط، وأحرار دستوريين يمثلون طبقة الأعيان، والوفد ويمثل الطبقة الوسطى والعمال والفلاحين، وحاول السياسيون إحياء شعور الفلاحين أكثر من محاولتهم إدخال الوسائل الزراعية الحديثة عندهم، وأكثر من إيصالهم إلى درجة مرضية لمحو الأمية.

وفي ثورة سنة ١٩١٩ اشتركت المرأة في الحركة السياسية وترتب على ذلك أن طالبت بحقوقها، وأنشئت لها جمعيات متعددة، وقد نالت بعض مطالبها، كتحديد سن الزواج وتقييد الطلاق، وقام الشباب بحركات حماسية قوية تطالب بالإصلاحات السياسية والاجتماعية.

والتطور اليوم في الشرق على أشده؛ تمتزج فيه السياسة بالاجتماع بالاقتصاد، كما كانت أوروبا منذ مائة عام.

الفصل السادس

الحياة الاقتصادية في الشرق والغرب

الزراعة والصناعة والتجارة

طبيعة الزراعة في الأرض تقتضي علاقة قوية بين مالك الأرض وزارعها، قد يكون المالك هو الزارع ولكن في كثير من الأحيان يكون المالك غير الزارع، وقد أدى التطور التاريخي في الشرق إلى وجود طبقة كبيرة يملكون مساحات واسعة يعمل فيها كثير من الفلاحين على نظام إقطاعي أو شبه إقطاعي. ومن النظم التي كانت متبعة في بعض الأقاليم نظام الالتزام، فيلتزم شخص دفع مال محدد للحكومة ثم هو يستغل الفلاحين كما يشاء، فكان شره الملتزم يدعوه إلى أن يمتص دماء الفلاحين إلى أقصى حد مما استتبع فقر الفلاح وانحطاطه ووقوعه في الديون المرهقة، وخلف الملتزمين طبقة الأعيان تعمل عملهم وتستغل استغلالهم، وكثيرًا من هؤلاء الأعيان يهجرون الريف ويسكنون المدن في حياة بذخ وترف ولا علاقة لهم بالأرض إلا أخذ الأموال منها.

ودخل الفلاح العادي قليل جدًّا، فالأسرة الفلاحة المتوسطة تزرع في أرض تبلغ نحو أربعة أفدنة، تصرف عليها في تقاو وسماد وأكل بهائم ودفع إيجار ما لا يقل عن ٨٠ جنيهًا، وربما كان المحصول يساوي ٩٠ أو مائة جنيه فيكون دخل الأسرة من عشرة إلى عشرين جنيهًا في السنة بل قد يكون أقل من ذلك، وهو مبلغ لا يسمن ولا يغني من جوع.

وكثيرًا ما يتسع بعض الشيء في نفقته أو يشتري بعض الأرض بالدَّين بفائدة باهظة تأتي على كل ما في يده.

والمبدأ المثالي هو أن تكون الأرض ملكًا لمن يزرعها، أما أن تكون ملكية الأرض لشخص ويزرعها آخر — كما هو شأننا في الشرق، فنظام فاسد، إذ يُمنح صاحب الأرض قسمًا كبيرًا من دخلها دون أن يقوم بعمل أو جهد شخص سوى شراء الأرض أو إرثها، والاستيلاء على المال الكثير من غلة الأرض دون أن يعمل شيئًا. ثم إن الفلاح إذا شعر أن أغلب مجهوده لغيره قَل نشاطه، وأضمر الحقد للمالك، ثم لا يبذل الجهد الكبير لإصلاح الأرض؛ لأنه يعلم أنه سيخرج منها عاجلًا أو آجلًا.

وكذلك من المبادئ العادلة ألا يملك إنسان أرضًا أكثر مما يلزمه في معيشته.

وكلما اتسعت مساحة الأرض سهل استعمال الآلات الحديثة؛ ولذلك يمكن انضمام صغار الفلاحين إلى نقابات تزرع وتحرث فتكون الملكية لأعضاء النقابة جميعًا يملكون أسهمها على الشيوع.

هذا عن الزراعة، أما الصناعة في الشرق فقد ظلت على حالها في القرون الوسطى، ثم انحط شأنها، وفي أوائل القرن الثامن عشر كانت مقتصرة تقريبًا على الصناعات البدائية، كالنجارة وصناعة الأقفال، وصناعة الأسلحة البدائية. قال من يصف الصناعة المصرية في عهد نابليون «إن الصناعة قاصرة على الأدوات التي تستعمل في الحياة اليومية، ويقنع في تغذية الأرض بطمي النيل والرمل؛ ولذلك هبط جدًّا عدد العمال بالنسبة للفلاحين وراجت جدًّا السلع الأوروبية المنافسة للصناعة المحلية، وانهارت أثمان الصناعات المحلية لرخص أسعار السلع الغربية، وأدى ذلك إلى فقر السكان فقرًا مطردًا، وحتى البلاد الشرقية التي كانت تمتاز ببعض الصناعات كالنسيج في مصر ودمشق، انهارت صناعتها أمام البضائع الأوروبية الرخيصة، إذ شتان بين صناعة تقوم على الآلات وصناعة تقوم على الأيدي، وكل الأعمال التي كانت تتطلب القوى المحركة كانت تعتمد على قوة الإنسان لا على قوة البخار والكهرباء. وكانت رءوس الأموال اللازمة للصناعة قليلة وفي الأغلب فردية. ثم إن العمال ضعيفو الأجور كالفلاحين لا نقابة لهم ويخضعون لتقاليد آبائهم في الصناعة والعمل.»

وربما عدت حركة محمد علي أول محاولة في الشرق للنهوض بالصناعة، فقد احتكر التجارة وأنشأ الصناعات، واستقدم الخبراء من الأجانب، ولم يضن عليهم بالمال، وأسس الورش الصناعية. وتقدم إليه أحد المهندسين الفرنسيين باقتراح استنبات القطن وإنشاء مصانع له؛ فكان ذلك انقلابًا كبيرًا وإن كانت مصر تعرف القطن من قديم، وقد أخضع

هذه الصناعة لمشروعاته العسكرية، وسار هذا التصنيع من مصر إلى بلاد الشرق الأخرى، ولكن لم تأتِ الصناعة في عهد محمد علي بما كان مرجوًّا منها، إذ كان الناس يهملون الآلات، ويديرونها إدارة سيئة، حتى إن بعض الآلات كانت تُدار بالثيران. ولم يقبل الناس إقبالًا كثيرًا على الصناعة باختيارهم، فكان أحيانًا يأتي بالجنود ليقوموا مقام العمال. وكثير من الأوروبيين سجل فشل محمد علي في التصنيع. يضاف إلى ذلك محاولة الأوروبيين إفشال هذه الصناعات ترويجًا لسلعهم، وتحقيقًا لمصالحهم؛ لأن الشرق على العموم سوق هامة لمنتجات المصانع الأوروبية، وكثيرًا ما تدخل الأجانب ليثقلوا كاهل الصناعات الشرقية، حتى تموت بتعرضها للخسارة.

ولما كثر احتكاك الشرقيين بالغربيين، وزاد وعي الشرقيين القومي، عمدوا إلى وسائل للاستقلال السياسي والاستقلال الصناعي، خصوصًا وقد كان عدد كبير من الصناع الأوروبيين يعمل في شركات كبيرة في الشرق، فتعلموا منهم الصناعة والإدارة الصناعية، وقام في الشرق نظام صناعي حديث.

وكان هناك عاملان كبيران في تقدم الصناعة الشرقية:

الأول: قيام الحرب العالمية الأولى وانقطاع الصناعات الأوروبية تقريبًا عنهم، فعمل الشرق على أن يكتفي بنفسه.

والثاني: سهولة المواصلات التي مكَّنت من بيع السلع في الأسواق.

ثم إن رأس المال الأجنبي كثر واستُخدم في الصناعات في البلاد الشرقية، وقد أمن الأجانب على أموالهم لاطمئنانهم إلى المحاكم المختلطة، فوجدت مصانع القطن والسجاير والأقمشة إلى غير ذلك.

وحلت الصناعات الحديثة التي تعتمد على الآلات محل الصناعات القديمة التي كانت تستخرج باليد، وبدأنا نشعر في الشرق بطبقة تعيش على أسلوب جديد من الحياة وهي طبقة العمال، وبدأت تظهر في الشرق مشاكل العمال، وبدأنا نسمع بإضرابهم وضغطهم على أصحاب رءوس الأموال لينزلوا على حكمهم ويرفعوا أجورهم ويحددوا ساعات العمل لهم، وسار العمل في التصنيع سير الشرق في المطالبة بالاستقلال، فلما انتهت الحرب العالمية الأولى تبين أنهم يستطيعون أن يكفوا أنفسهم بأنفسهم، فزادوا قوة في التصنيع.

ومما زاد الصناعة قوة؛ ازدياد عدد السكان، وإمكان تصريف السلع، وتشجيع الصناعة المحلية بفرض ضرائب كبيرة على الواردات الأجنبية، ومنحت بعض الدول

امتيازات لمن يقومون بالصناعة تشجيعًا لها، كمنح الأراضي لإقامة المصانع عليها مجانًا، والإعفاء من الضرائب والرسوم الجمركية على المواد التي تشجع الصناعة وهكذا. وأفاد الشرق ما لديه من مواد أولية كثيرة غذَّت الصناعة، كالقطن والصوف وقصب السكر والمعادن الأساسية كالحديد والفحم ومساقط المياه.

وإذا قارنَّا بين الشرق منذ خمسين عامًا وبينه اليوم؛ أدركنا مقدار ما قطعه من تقدم، ولكن ما زالت الصناعة الغربية أكثر إتقانًا وتزويقًا، والصناعة الشرقية ينقصها التجميل الأخير.

وقد نتج عن التصنيع تجمع العمال وكثرتهم، وسرعان ما ارتقى وعيهم القومي وإدراكهم، فألَّفوا النقابات تطالب بحقوقهم ورفع مستوى معيشتهم. وكثيرًا ما تملقت الأحزاب هؤلاء العمال وأغدقت عليهم الأموال لاستمالتهم، وقد أدى كل ذلك إلى تحسن مركزهم الاجتماعي، والإصلاح من شئونهم الصحية والتعليمية إلى حد ما؛ حيث لم يجد الفلاح شيئًا من ذلك.

والتجارة في الشرق كانت بدائية كبدائية الزراعة والصناعة، فكان التاجر حرًّا تمام الحرية في أن يربح كما يشاء من غير تدخل من الحكومة، فهو يشتري السلع بأرخص الأثمان ثم يبيعها بأغلى الأثمان. وكانت وسائل النقل كذلك بدائية، على ظهور الجمال أو نحوها، وهو في ذلك يتعرض لأخطار كثيرة فكان يبالغ في الربح نظير هذه المخاطر. وترك التجارة حرة من غير إشراف من الحكومة يعرِّض البلاد لأضرار كثيرة، وقد رأينا في الأيام الأخيرة من جشع التجار ما اضطر الحكومة إلى التسعير الجبري والحد من حرية التجارة.

والتاجر إذا كان ذا رأس مال قوي احتكر سلعة أو سلعًا وتصرف في أثمانها كما يشاء، وهو لا ينظر في تجارته إلى ما تحتاج إليه البلاد وما لا تحتاج إليه، إنما غرضه الأول هو زيادة ربحه.

ويصور لنا كتاب ألف ليلة وليلة صورة لطيفة للتجار والتجارة في بغداد في القرون الوسطى، وكيف كانت الأسواق التجارية والدكاكين واتخاذها ندوة في النهار وسامرًا في الليل مما بقي في البلاد الشرقية إلى عهد قريب، وكيف كانت تقدَّم فيها القهوة، ويتكلم فيها في كل شيء، وتكون هذه الندوات سببًا في عقد زواج، أو وقوع طلاق، ولم يزَل ذلك كله إلا بدخول المدنية الحديثة وتقليد الأوروبيين في نظمهم وعاداتهم.

هذا كله في الشرق، أما في الغرب فقد حصل فيه انقلاب في كل هذه الأمور: ففي الزراعة اتجهت البلاد الأوروبية إلى أن تسد حاجاتها بنفسها، ثم إلى استخدام العلم لإمكان استغلال الأرض أكبر استغلال ممكن، فاستخدموه في التسميد وتحليل الأرض ومعرفة ما تصلح له من أنواع الزرع والعناية بالحرث وطرق الصرف، والعناية بالمواشي بتربيتها والمحافظة على سلامتها من الأمراض.

أما تقدم أوروبا في الصناعة، فكان أكبر، فبعد أن كانت الصناعة عنصرًا ثانويًّا للإنتاج بعد الزراعة أصبحت هي العنصر الأول، وتحول كثير من أهل القرى الفلاحين إلى الصناعة. فلما اجتمع العمال في مكان واحد انتشرت بينهم المبادئ التي جعلتهم يطالبون بحقوقهم ويضربون لتحسين حالتهم، وساعد على نمو الصناعة اختراع الآلات العديدة، كآلات الغزل والنسيج وآلات لصهر الحديد والصلب وغير ذلك، فزاد عدد العمال وزاد نتاج الآلات. كما اخترعت آلات لاستخراج الفحم وصهره واستخراج ما في البلاد من مناجم أخرى، وكان من نتاج ذلك كله ازدياد الثروة وتحسن حالة الأهالي، وساعد على ذلك أيضًا إصلاح وسائل المواصلات وطرقها.

ونظم الأوروبيون تجارتهم، ففتحوا لها أبواب العالم ونشروها في كل مكان.

وعلى العموم كان من أثر التحول من الزراعة إلى الصناعة تغير النظريات الاقتصادية، فظهر علماء في الاقتصاد بحثوا المسائل الاقتصادية وجعلوا الاقتصاد علمًا، وأخضعوا التجارة لما وصلوا إليه من بحث.

وكذلك كان الأمر في أمريكا فاعتمدت أول أمرها على الزراعة، ثم تحولت إلى الصناعة ثم وضعت خططها الاقتصادية للسيطرة على العالم.

وكان لهذا كله أثر كبير في النظام السياسي وفي أخلاق الشعوب، فلما كان اقتصاد البلاد يقوم على الزراعة كان الحكم يقوم على المزارعين وأصحاب الضياع والإقطاع، فلما تحولت البلاد إلى الصناعة كان لظهور طبقة من الناس تمول المصانع وتشتري الآلات وتستورد المواد الخام، وكان لتكوُّن الشركات انعكاس في الحكومة.

ولما تحول الفلاح إلى صانع وزاد دخله ارتقى وتمكن من إصلاح مسكنه وتربية أولاده وترقية معيشته. كما أن اتساع التجارة وتنظيمها خلقا طبقة من التجار لها نفوذ على الحكومة ونوع سيرها.

من هذا يظهر الفرق الكبير بين الشرق والغرب في هذه الأمور الثلاثة، الزراعة والصناعة والتجارة التي هي عماد الحياة، فنراها بدائية كلها في الشرق، متقدمة في

الغرب، ونشأ عن تقدمها في الغرب رقي الحياة الاجتماعية، فهي إذا تقدمت في أمة غلبت الفقر، وإذا تغلبنا على الفقر تغلبنا على المرض والجهل والذل. أما في الشرق فلما كانت بدائية حالفها الفقر غالبًا، واستتبعه المرض والجهل غالبًا، وربما كان كثير من الفروق التي ذكرناها في أبواب مختلفة ترجع إلى الاختلاف في هذه الأمور الثلاثة.

ولا يفوتنا هنا أن التقدم الزراعي والصناعي والاقتصادي في أوروبا لم يكن إلا وليد القرن الثامن عشر والتاسع عشر، أما قبل ذلك فكانت حالة الغرب فيها أشبه بحالة الشرق، مما يؤيد ما قلناه من أن المسألة تغير في الظروف وارتقاء درجات في السلم.

وقد مر دور طويل كانت سياسة الغرب فيه نحو الشرق منعه من استغلال موارده وتحسين صناعته، حتى يظل فقيرًا يعتمد في حياته كلها على نتاج الغرب، ولم يصنِّع الشرق نفسه ويحسِّن بعض الشيء حالته الاقتصادية إلا بعد كفاح. وأذكر أن اللورد كرومر غاظه إنشاء مصنع في مصر لصنع البفتة؛ لأنها تؤثر على سعر البفتة المستوردة من أوروبا، وفرض على المصنع ضريبة كبيرة اضطرته إلى الإغلاق، ولولا وجود اقتصاديين سلكوا كل السبل الممكنة وجاهدوا جهادًا كبيرًا، لما أمكن تحويل بعض البلاد من زراعية بحتة إلى زراعية صناعية، وخير مثل لذلك ما فعله طلعت حرب في مصر.

وفي البلاد الشرقية والحمد لله ثروات كبيرة موفورة، لا تحتاج إلا إلى العلم والنشاط في استخراجها، كم من الفلاحين ينفقون قليلًا من وقتهم في مواسم الزراعة، ثم هم كسالى في سائر العام، لو علِّموا أن يستخدموا فراغهم في تربية الدواجن وتربية النحل وتربية المواشي وفي سائر الصناعات الزراعية لزادت ثروتهم وتضاعفت، ثم بعد ذلك تتحسن حالتهم الاجتماعية والأخلاقية. وكذلك لو استطعنا أن نوفق بين نتاجنا الزراعي وصناعتنا وعرفنا كيف نغزل القطن وننسجه على شكل واسع يستغرق أكثره، وعرفنا كيف نستخدم البترول في صناعاتنا الواسعة لكانت الثروة مضاعفة؛ ولا يكون ذلك حتى تعم في البلاد نظم النقابات التعاونية على أسس سليمة.

والعلاقات الاقتصادية آخذة في التغير والاتجاه نحو إفساح المكان الأول للصناعات الوطنية، والاجتهاد في تقليل استيراد البضائع من الغرب ما أمكن ذلك. ومنذ سنة ١٩٢٧ بدأت الصين كفاحها ضد التجارة الغربية، فوضعت تعريفة جمركية خاصة بها، كما فعلت الهند. وفي سنة ١٩٣٠ وضعت مصر تعريفة جمركية كذلك لتحمي منتجاتها المحلية، وكان مظهر الهند في التحرر الاقتصادي في الخمسين سنة الماضية مظهرًا واضحًا. أما اليابان فكانت أكثر بلاد الشرق تقدمًا في الصناعات، وغمرت التجارة اليابانية الأسواق لرخصها تبعًا لرخص عمالها.

وبدأ قادة الشرق يفهمون أن التحرر السياسي بدون التحرر الاقتصادي لا يكون إلا نصف النجاح، وقد اتخذ التحرر الاقتصادي في الشرق شكلًا إيجابيًّا وشكلًا سلبيًّا، فالشكل السلبي كان مقاطعة البضائع الأجنبية، أو التقليل منها، وبدأت المقاطعة في الهند سنة ١٩٥٠، وقد تعلم منها الشرق كله هذا الدرس، وأما الشكل الإيجابي فالتوسع في التصنيع، ومما ساعد عليه تأسيس البنوك المحلية في بلدان الشرق، وقد استطاعت هذه البنوك أن تتبنى كثيرًا من المشروعات العامة، على أن دول الشرق قد تفاوتت في نسبة رءوس الأموال الوطنية المساهمة في بنوكها.

وعملية النقل الاقتصادي في الشرق أصبحت مستطاعة بفضل تقدم المواصلات والنقل، فبفضلها فُتحت أسواق جديدة لم يكن يُعرف عنها شيء كثير، وقد غزت المواصلات ووسائل النقل الشرق كله بعد الحرب العالمية الأولى، وكان من أهمها السيارات والطيارات، فقد سهلت الانتقال إلى أماكن سحيقة لم يكن من السهل الوصول إليها، وقد نجحت السيارات والطيارات في الشرق نجاحًا كبيرًا لقلة الخطوط الحديدية ولتفرق السكان في أفريقيا وأواسط آسيا تفرقًا شديدًا، وفي جزيرة العرب سهلت السيارات والطيارات، لا السكك الحديدية، سُبل التجارة. كان في الحجاز سنة ١٩٢٦ أربع سيارات للعائلة المالكة فأصبح في سنة ١٩٢٩ ألف وخمسمائة سيارة زاحمت الجِمال مزاحمة جدية، وكذلك الشأن في صحراء الشام وصحراء بغداد.

وقد بدأت الحركة العمالية تتطور في الشرق في القرن الأخير وزادت مكانة العمال في المجتمع، ولعبوا دورًا هامًّا في تاريخ الشعوب، واضطرت الحكومة أن تتدخل لفض النزاع بين العمال وأصحاب رءوس الأموال، وكوَّن العمال لأنفسهم نقابات، بل إنهم كثيرًا ما يخرجون عن النقابات نفسها ويفرضون مطالبهم ونظمهم فرضًا؛ حتى اضطروا أصحاب رءوس الأموال إلى أن يتحولوا عن موقفهم، وكل يوم نسمع اضطرابًا جديدًا قد ينتهي بثورة عنيفة. وتكوَّن اتحاد دولي للنقابات في هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ مطالبًا المجلس الاقتصادي والاجتماعي بالعمل السريع على إقرار الضمانات الكافية لتمتع العمال بحقوقهم النقابية على اعتبار أن هذه الحرية تدخل في باب الحريات التي يكفلها مجلس إدارة هيئة العمل الدولية، وفي سنة ١٩٤٩ أقر مؤتمر العمال الدولي الاتفاقية الخاصة بالتنظيم النقابي؛ وهي تضمن أن يباشر العمال حقوقهم في تأليف النقابات ومزاولة نشاطهم من غير تدخل من جانب أصحاب الأعمال، وبلغ عدد الدول

التي انضمت إلى هذه الاتفاقية إحدى عشرة دولة في أول مارس سنة ١٩٥٣، ولا يوجد من بينها دولة من دول الشرق الأوسط إلا تركيا.

وكان مما له أثر كبير على حياة الشرق إقراره تطبيق قوانين العمال على عمال الزراعة، وكان من أثر ذلك رفع أجورهم المنحطة خصوصًا في بلاد لا تزال الزراعة غالبة على أمورها الاقتصادية. وقد بلغ عدد نقابات العمال الزراعيين في مصر وحدها منذ صدور قانون النقابات الجديد سنة ١٩٥٣ ثلاثين نقابة، تضم نحو ستة آلاف عامل، وإذا قدر لها النجاح ازدادت تقدمًا وتزايد عددها.

وأمر آخر هام يفرق بين الشرق والغرب؛ وهو أن الشرق على العموم لم يضع حدًّا فاصلًا بين الاقتصاد والأخلاق. بل هو أخضع الاقتصاد للأخلاق، وعلى ذلك سار الإسلام، فحرَّم الربا، وحرم الوصية لوارث لأنهما يضران ضررًا أخلاقيًّا، وعلى هذا أيضًا وضع غاندي فلسفته الاقتصادية، فمن مزجه الاقتصاد بالأخلاق وضع جملة مبادئ، وهو لم يكن يؤمن بالنظريات الاقتصادية التي تسود أوروبا، ولا بالنظرة الأوروبية المبنية على المنافسة والتي ترمي إلى جمع الأموال والإكثار من البضائع، والتي كان المال لديها الخير الأعلى والإله المعبود.

أما النظرة الأوروبية فليست غايتها سعادة الجميع؛ وإنما غايتها مضاعفة المال بأية وسيلة كانت، وقد سبَّب هذا الفصل بين الاقتصاد عن الأخلاق أضرارًا جسيمة من فقر مدقع بجانب غنًى شديد، واستغلال واستعمار وبطالة وحروب مما جعل المدنية الحديثة في خطر.

كان غاندي يرى أن الإنسان أرفع شأنًا من المال، فيجب أن لا يستعبده المال، وقد قال «إن النظريات الاقتصادية التي تبعث على اغتيال قطر آخر واستغلاله، وتتوخى جرح عواطف الشعوب، وفرض سلطانها عليهم بقوة، ليست بفاسدة فقط بل هي محرمة أيضًا، وإن قيمة الصناعة يجب أن لا تقاس بالربح الذي تربحه الشركات بل بأثرها في حياة الناس وأخلاقهم وأرواحهم.» وهو يعتقد أن الأزمة الحاضرة في العالم ليست عسكرية ولا سياسية ولا اقتصادية بل هي أخلاقية، ومن رأيه البساطة في العيش وتحديد حاجات الإنسان ما أمكن، فليست السعادة عنده في كثرة الحاجات والتمتع بها، إنما هي في المعيشة البسيطة مع التفكير العالي، كما كان يقول الرواقيون من قبل، وذلك لأن الطموح إلى الرفاهية والاستكثار من الحاجات ساقا الناس إلى الجشع، وإلى الحروب والهلاك.

ومن مبادئه أيضًا أن الإنتاج يجب أن يكون للاستهلاك لا للربح. إن الإنتاج في النظام الرأسمالي أساسه الربح، فإذا لم يكن هناك ربح فلا إنتاج، ولا بأس عنده أن يجوع من الناس من يجوع ويموت من يموت، وتعدم السلع إعدامًا إذا لم يمكن بيعها بربح.

ولذلك لا بأس عند الرأسماليين من أن يصاب العالم بالحرائق والزلازل والحروب إذا كان كل ذلك يؤدي إلى تصريف البضائع بربح. كان غاندي يرى هذا ضد الأخلاق وضد الإنسانية. على أن غاندي لم يكن يذهب مذهب الاشتراكيين في السعي إلى وفرة الإنتاج حتى تتوافر الرفاهية للجميع؛ فإن رفاهية الإنسانية وسعادتها في رأيه ليست بوفرة الإنتاج بل بتحديد المطالب والحاجات الإنسانية.

وهو أيضًا يقول بتقدير العمل وتقديسه، ويرى أن العمل هو الثمرة الطبيعية للطبع السليم، وكان يُجل على الخصوص العمل اليدوي ويكره الكسل ويعده ألد أعداء الإنسان، فدعا شعبه إلى احترام العمل اليدوي، وكان هو نفسه يزاوله.

وكان يكره الآلات الهائلة والمصانع الكبيرة ويطلب الحد منها، ومع ذلك كان يرحب بالآلات الصغيرة التي توفر مجهود الإنسان غير الضروري، وتنجد عددًا غير قليل من الناس، كآلات الخياطة والنسيج. وقد دعاه إلى ذلك ما رآه من تجاوز عدد العاطلين في الهند السبعين مليونًا وكان يعتقد أن الآلات الكثيرة تزيد عدد العاطلين، فدعا إلى تشجيع الصناعات اليدوية في الأكواخ، والصناعة بالآلات الصغيرة.

ومن هذا نرى مدى اختلاف المبادئ الشرقية في الاقتصاد عن المبادئ الغربية. ويعبر عن هذا أحسن تعبير قول غاندي:

> إن طريق الهند لا يماثل طريق الغرب الملطخ بالدم والذي تشمئز منه الهند وتملُّه. إن طريقها خالٍ من سفك الدم، مجرد عن العنف، وهو طريق المعيشة البسيطة المبنية على الورع والدين …

الفصل السابع

الفرد والأسرة

يختلف أساس النظام الاجتماعي في الشرق عنه في الغرب. فالفرد وحدة الحياة الاجتماعية في الغرب، والأسرة وحدتها في الشرق، ومعنى ذلك أن الفرد له أكبر الامتياز في الغرب، والأسرة لها أكبر الامتياز في الشرق. ومظهر ذلك أن الفرد في الغرب له أكبر حرية، فهو يفعل ما يشاء ويرقي نفسه أو لا يرقيها كما يشاء، وينصرف إلى الجد وينغمس في اللهو ما يشاء، ويتخير العمل الذي يشاء في المكان الذي يشاء، وليس لأسرته أن تتدخل تدخلًا حاسمًا في ذلك. حتى الفتاة في كثير من الأوساط أصبح لها من الحرية الفردية ما للفتى.

وقد ترتب على هذا الوضع جملة نتائج، منها مثلًا العلاقة بين الزوجة والزوج، فمقتضى الفردية أن الزوج لا يتدخل في شئون زوجته إلا بقدر، فلا يصح مثلًا أن يفتح خطاباتها، ولا يمنعها حريتها في حدودها، وهي كذلك بالنسبة له. ومن ذلك أيضًا أن هذه الحرية الفردية تُنتج حتمًا النظام الديمقراطي، فالحرية تناهض الاستبداد بجميع أشكاله، استبداد الأب والأم واستبداد الحاكم؛ ولذلك كان الغربيون على العموم أكثر ميلًا إلى الديمقراطية، ومنها قلة التدخل مثلًا بين الأب وأولاده، والسيد وخدمه، وصاحب المصنع وعماله، ومنها حب الابتكار في الغرب، أكثر منه في الشرق كما سيأتي، فالفرد إذا شعر بحريته كره التقليد؛ لأن التقليد نوع من التقييد ومضمونه ضعف الفردية، ففكر لنفسه وابتكر.

على العكس من ذلك الحال في الشرق فأفراد الأسرة في الشرق أكثر ارتباطًا منهم في الغرب. يشعر الفرد في الشرق بالمسئولية الكبيرة نحو أبيه وأمه وأخوته، بل أعمامه وعماته، وأخواله وخالاته، وهو يعتز بعزة الأسرة، ويذَل بذلتها، خصوصًا في الأوساط البدوية وشبيهتها كالفلاحين. وكثيرًا ما نسمع هذا من بيت فلان، أو ابن عم فلان. ثم قد يضم البيت، خصوصًا قبل انتشار المدنية الحديثة، الأب والأم وأولادهما والابن وزوجته

وأولاده والبنت وزوجها وأولادهما، هذا عدا الأقارب، وكل الأسرة تتعير من فعلة قبيحة فعلها أحد أفرادها، وتفتخر بفعلة حميدة كذلك، بل قد يصل الشعور بالعار إلى حد قتل صاحب الفعلة الشنعاء التي عدتها الأسرة عارًا ومجلبة للفضيحة.

وعلى العكس من ذلك الأسرة الغربية، فهي تكاد تكون قاصرة على الزوج والزوجة وأولادهما الصغار، والاتصال بين الرجل وأخته أو عمته أو خالته اتصال خفيف، وقد لا يكون بينه وبينهم اتصال أصلًا، وإذا كبر ابنه فعليه أن يبحث له عن عمل في بلد آخر أو قارة أخرى، وقد يمتد هذا إلى البنت أيضًا، وليس هناك غرابة في أن يكون أحد أفراد الأسرة غنيًّا جدًّا وبعضها فقير جدًّا، ثم لا يعين الغني منهم الفقير.

يضاف إلى ذلك من الفروق التي تتعلق بالأسرة أن المرأة الغربية تشارك الرجل في سلطة البيت وقد تزيد عليه، ويكاد يكون الزوجان متفقين على أن شئون البيت من سلطة المرأة، وشئون الخارج من اختصاص الزوج. أما في الشرق، وخاصة قبل اتصاله بالمدنية الحديثة وتأثره بها، فالحال غير ذلك، فالسلطة للرجل حتى في أتفه الأمور، ولا شك أن هذه الأوضاع كانت نتيجة لمؤثرات عميقة المدى في التاريخ، وربما مرت كثير من الأمم على الأدوار الطبيعية بالأسرة وحرية الفرد، حتى ليكاد علماء الاجتماع يحددون أدوارها وأسباب انتقالها.

ولا شك أن من أهم أسباب الفروق بين الوضع في الشرق والغرب هو غلبة الزراعة في الشرق وغلبة الصنعة والتصنيع في الغرب؛ ولذلك نرى في الأمة الواحدة فروقًا بين وضع الأسرة في الريف وبينه في المدن.

ويحق لنا هنا أن نتساءل: أي الوضعين خير؟ إني شخصيًّا مع استحساني للحرية الفردية أرى أن الغرب أفرط فيها وأن الشرق قصَّر فيها، فإفراط الغرب يظهر في إلقاء الحبل على الغارب للشباب، والشباب عرضة للزلل، فترك الحرية للشاب والشابة لا إلى حد، جر إلى هذا الفساد الذي يشكو منه الغربيون أنفسهم، وبدأ الشرقيون السائرون على منوالهم يشكون منه أيضًا.

وأعتقد — كما قلت — أن الإسراف في الحرية ضار كالإسراف في التقييد، وأما قوة العلاقة في الأسرة الشرقية فهي على العموم خير من ضعفها في الغرب؛ لأنها تحمل العطف والإحسان والمعاونة وهي عواطف إنسانية نبيلة.

على أن شدة هذه العلاقة في الأسرة من ناحية أخرى قد تضر، إذ تحمِّل بعض الأفراد أعباء فوق ما يستطيعون، أو تفسد الأولاد بشدة الحنو عليهم.

والنتيجة أننا لسنا نرضى عن حرية الفرد في الغرب، ولا شدة الترابط في الأسرة في الشرق، ونميل إلى تحديد الغلو فيهما، ومن خير الأمثلة على الإفراط في العلاقات العائلية ووجوب الحد منه ما كان في الجاهلية من سيرهم على مبدأ «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» فهذا نتيجة لشدة الترابط، فلما جاء الإسلام أراد أن يحد من هذا المبدأ وفسره بأن نصرة الظالم هي بأن يُمنع من ظلمه، وينصر المظلوم بدفع الظلم عنه؛ أي إنه يفضل العمل بمبدأ الحق على الانقياد للترابط العائلي أو القبلي.

ولقد اعتاد الناس أن ينسبوا إلى الشرق تعدد الزوجات وإلى الغرب توحدهن، وإن كانت اليابان وتركيا قد دخلت الآن في عداد من يوحد الزوجات رغم أنهما تُعدان من الشرق، وقَل في الشرق تعدد الزوجات خصوصًا في الأوساط المثقفة، وربما كان هذا التعدد في الشرق والتوحد في الغرب، وما ذكرنا قبل من حال المرأة في الشرق وفي الغرب، دليلًا على أن المسألة مسألة تطور اجتماعي، واختلاف في درجات السلم أكثر منه مسألة شرق وغرب جغرافيين. فأوروبا عرفت تعدد الزوجات، فقد انتشر بين «الصقالبة» والتيوتونيين، وأيرلندا القديمة، كما انتشر بين ملوك أوروبا الأقدمين وأمرائهم. فإن ملك أيرلندا في أواسط القرن السادس عشر الميلادي كان متزوجًا اثنتين وله خليلتان، وشارلمان الملك المشهور كان له زوجتان وخليلات كثيرات، وفردريك وليم الثاني ملك بروسيا تزوج أكثر من واحدة.

وإذا نحن اقتصرنا على النظر إلى الناحية القانونية فهذا التمييز صحيح، وهو أن قانون الشرق يبيح التعدد وقانون الغرب ونظام الكنيسة لا يبيحانه. أما في الواقع فإن تعدد الزوجات في الشرق ليس عامًّا، بل نكاد نقول إنه قليل، خصوصًا بين الطبقات المثقفة، وفي الغرب هذا التوحد صحيح قانونًا، فالزوج يتزوج واحدة لا أكثر، ولكن لا ننسى أن اتخاذ الخليلات كثير، وقد يصاحبه أيضًا اتخاذ المرأة خليلًا أو أخلاء وكان الأمر كذلك في عهد الغربيين من اليونان والرومان، زوجة واحدة، ولكن خدينات كثيرات، فدعوى أن الشرق وحده هو الذي يعدد الزوجات لا تصح إلا في حدود القانون الحرفي لا في الحياة العملية، بل لقد شاع في الغرب العزوبة وعدم التزوج والاكتفاء بالتخادن.

والإنسان يتساءل: أيهما خير، تعدد مشروع، أو تعدد تحت طي الخفاء، ومع الرياء والنفاق من غير أن يكون مشروعًا؟ ومع ذلك فنحن لا ننكر أن المثل الأعلى للأسرة زوجة واحدة لزوج واحد على أن ينفذ هذا في صدق وإخلاص من الجانبين أما زواج واحد ولعب متعدد، فليس المثل الأعلى للأسرة.

الفصل الثامن

المرأة

تمتاز المرأة الغربية عن المرأة الشرقية بسعة ثقافتها، بحكم أنها في الغالب تتعلم تعلمًا أرقى وبحكم أنها أكثر إطلاعًا للعالم، وبحكم مخالطتها للرجال ومحادثتها الطويلة معهم، وبحكم رحلاتها وما تتمتع به من حرية.

ويظهر ذلك كثيرًا في تربيتها أولادها على أساس علمي لا خرافي، كما يظهر في حديثها وتصرفاتها. أما المرأة عندنا في الشرق فهي حديثة عهد بعلم، وقد كانوا في القرون الوسطى، حتى إلى عهد قريب، يحرِّمون تعليمها، ويعتقدون أنها لم تُخلق للعلم ولكن لتقعد في بيتها، وتدير شئونه، وهي حتى إلى الآن لم تبلغ مبلغًا كبيرًا في العلم مع السماح لها بدخول الجامعات ومع سفورها ومخالطتها الرجال، ودخولها في الوظائف الحكومية والأهلية، إلا في القليل النادر، وليست نساء المدن هي المقياس الصحيح للمرأة، بل يجب أن ننظر إلى ذلك نظرة تشمل جميع نساء المجتمع الشرقي.

وضعف تعليم المرأة الشرقية يجعلها تؤمن بكثير من الخرافات، كالأحجبة والجن والتعاويذ، وتسير حياتها وفق هذه الاعتقادات. نعم، إن بعض النساء الأوروبيات يعتقدن في الخرافات بدليل ما نسمع من حج إلى مشعوذين، واعتقاد في أشياء وهمية خرافية، ولكن ذلك على وجه العموم لا يقاس بما عليه المرأة الشرقية في ذلك.

ولقد جاهدت المرأة الغربية لكسب حقوقها على فترات؛ حتى أصبح لها من الحقوق ما للرجال، فهي مواطنة مثله: لها أن تعمل، ولها أن تكسب، ولها أن تنتخِب ولها أن تُنتخب، ولها أن تباشر أعمالها كما تشاء، وكان مما استدلت به أنها في تكوينها البيولوجي والفسيولوجي كالرجل، وأنها تدفع الضرائب وأن عليها من الواجبات القانونية ما على الرجل، وتتحمل أعباء تربية الأولاد كما يتحمل الرجل أو أكثر، بل وهي تشارك الرجل في تحمل أعباء الحرب، قد لا تقاتل كما يقاتل الرجل ولكنها تجهِّز للقتال، وليس ذلك بأقل

من حمل السلاح، فلماذا بعد هذا كله تُحرم من الحقوق التي يتمتع بها الرجال؟ على هذا سارت المرأة في الغرب. أما في الشرق فلم تكن لها كل هذه الحقوق، وكان الرجل يُعد السيد والمرأة تُعد عبدة، حتى نالت بعض هذه الحقوق بالتقليد. ولا يزال المدى أمامها فسيحًا، ولا تزال المعركة إلى اليوم قائمة في حق المرأة في أن تنتخِب وتُنتخَب، وفي أن تشارك الرجل في العمل في الحياة العامة، والزمن وحده كفيل للإجابة على هذه الأسئلة.

والحياة الاجتماعية في الشرق جعلت العفة في أول قائمة الأخلاق عند النساء، حتى لقد يضحي الرجل بتعليم المرأة ومعرفتها شئون الدنيا في سبيل عفتها، ويود لو أن الأرض ابتلعته إذا سمع خيانة من زوجته أو ابنته أو إحدى قريباته، نعم إن العفة فضيلة للنساء في الغرب، ولكنها لم تقوَّم القيمة التي لها في الشرق.

وتمتاز المرأة الشرقية بأنها تنظر إلى نفسها كأم لأولادها وسيدة لبيتها، بينما المرأة الغربية تعني أكثر ما تعني بنفسها كفرد. فهي تعطي ملابسها وأصباغ وجهها وأدوات زينتها أهمية كبيرة؛ لأنها تعلم أنها في مجتمعها إن فقدت جمالها فقدت كيانها. أما المرأة الشرقية فهي تحس إحساسًا جديدًا بحياة جديدة وشخصية جديدة عندما تصبح أمًّا؛ لأن وجودها كأم يجعلها شخصًا مرغوبًا فيه منذ الوقت الذي تلد فيه، فتشعر أن هذا الطفل يجعل لها مكانة في الحياة لا يستطيع أحد أن يملأها غيرها؛ ولذلك تحزن المرأة حزنًا شديدًا إذا هي لم تلد لأنها تشعر أنها لم تأسر قلب زوجها، وقد يذهب إلى غيرها لينجب منها. أما المرأة الأوروبية فهي تهرب من الطبيعة وتحاربها، فلا تود أن تكون أمًّا، وإذا أصبحت أمًّا لم تحب أن تلد كثيرًا، لا خوفًا من النفقات وحدها، ولكن خوفًا من ضياع وقتها لأولادها، وحرمانها من وقتها لنفسها، وهي ترهق نفسها بالمحافظة على جمالها، وكثيرًا ما تحرم نفسها من عاطفة الأمومة، ولا ينال الأولاد من أمهم في الغرب ما ينالونه من الأم الشرقية. وهي تكره كل الكره أن تكون جدة؛ لأن ذلك يشعرها بتقدمها في السن. قرأت مرة أن سيدة أمريكية سئلت عن شعورها يوم أن أتى إلى الدنيا حفيدها فقالت: «لقد كان شعوري سيئًا جدًّا عند ولادة الحفيد الأول ولكني اعتدت على ذلك.»

أما السبب في أن تقدير المرأة الشرقية للأمومة أكبر من تقدير المرأة الغربية لها؛ فلما ذكرنا من قبل من أن الفردية والشخصية تغلبان على الغربيين ذكورًا وإناثًا، بينما يغلب في الشرق الرباط العائلي.

لقد مضى على المرأة الغربية زمن كانت تشعر فيه بحاجتها الشديدة إلى رجل يظلها ويعولها، فلما جاءت الحرب العالمية الأولى، ونقص عدد الرجال ونقصت اليد العاملة

منهم، حل النساء في كثير من الأعمال محل الرجال، فلما زاولن العمل الذي كان يعمله الرجال، رأين أن عمل الرجال لم يكن بالخطورة التي كُن يتصورنها، وليس عمل الرجال هذا بأصعب مما كانت تعمله المرأة بالبيت، فقلَّ اهتمامهن بالرجال وقل اعتمادهن عليهم، وأقدمن على تحمل المسئولية بشجاعة، فكان من جراء ذلك الحرية المفرطة والتعرض أحيانًا للزلل، وجاءت الحرب الثانية فزادت من كل ذلك، وطالبت المرأة بالمساواة التامة بالرجل.

ونلاحظ من الفروق أيضًا أن المرأة الغربية بكل هذه الأعمال التي تزاولها تفقد أنوثتها بالتدريج، وإذا بك تحدث المرأة الأوروبية أو الأمريكية في أية مسألة من المسائل فتحس كأنك تحدث رجلًا، ولا تزال المرأة الشرقية في الأعم الأغلب تحتفظ بأنوثتها ورقتها كما يشهد بذلك كل الغربيين الذين زاروا الشرق.

إنه لمن الصعب أن نحكم أيهما خير للمجتمعات البشرية، فهذه النظرة الخاطفة ترينا أن في كل من المرأة الشرقية والمرأة الغربية عيوبًا ومزايا.

الفصل التاسع

التقليد والابتكار

يقول «ول ديورانت» في مقدمة كتابه «قصة الحضارة»:

> سيدهشنا أن نعلم كم مخترعًا من ألزم مخترعاتنا لحياتنا، وكم من نظمنا الاقتصادية والسياسية ومما لدينا من علوم وآداب وما لنا من فلسفة ودين يرتد إلى مصر والشرق، وفي هذه اللحظة التاريخية حيث تسرع السياسة الأوروبية نحو الانهيار، وحيث تنتعش آسيا بما يبعث فيها الحياة، وحيث الاتجاه كله في القرن العشرين يبدو كأنما هو صراع شامل بين الشرق والغرب، في هذه اللحظة نرى أن التعصب الإقليمي الذي ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ، التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان وتلخص آسيا كلها في سطر واحد، لم يعد مجرد غلطة علمية، بل ربما كان إخفاقًا ذريعًا في تصوير الواقع ونقصًا فاضحًا في ذكائنا، إن المستقبل يولي وجهه شطر المحيط الهادي فلا بد للعقل أن يتابع خطاه هناك.

ويقول فيما قاله عن مصر «حسبنا أن نذكر من معالم حضارة مصر؛ نهوضها بالزراعة والتعدين والصناعة والهندسة العملية، وأنها في أغلب الظن هي التي اخترعت الزجاج ونسيج الكتان والورق والحبر والتقويم والساعة والهندسة النظرية والحروف الهجائية، وأنها هي التي أحسنت صنع الملابس والحلي والأثاث والمساكن، وأصلحت أحوال المجتمع وشئون الحياة، وأن المصريين أول من أقام حكومة منظمة نشرت لواء السلام والأمن في البلاد، وأنهم أول من أنشئوا نظام البريد والتعليم الابتدائي والثانوي والفني لإعداد الموظفين ورجال الإدارة، وهم الذين ارتقوا بالكتابة ونهضوا بالآداب والعلوم والطب، وهم أول من وضع دستورًا واضحًا للضمير الفردي والضمير العام،

وهم أول من نادى بالعدالة الاجتماعية وبالاقتصار على زوجة واحدة، وأول من دعا إلى التوحيد في الدين وأول من كتب في الفلسفة، وأول من نهض بفن العمارة والنحت … إلخ.»

فإذا كان هذا هو تاريخ مصر، وإذا كان هذا هو بعض ما ابتكرته، وإذا كان تاريخ الهنود والصينيين وتاريخ العرب والفرس لا يقل روعة عن تاريخ مصر، فما بال تاريخنا الحديث لا يُظهر لنا إلا حب الشرق للتقليد، واتباع الخلف ما سار عليه السلف أو اتباعهم ما سار عليه الغربيون؟

يقول البعض إن الحياة في الشرق سهلة بسيطة، فهي تدعو إلى الخمول والكسل، بينما الجو البارد في أوروبا والطبيعة الصعبة والبحار الهائجة علمتهم الكفاح والنشاط، فهم يكافحون في الحياة لتحصيل القوت، ومن ذلك تعلموا مكافحة الحكام إذا استبدوا، وتعلموا النشاط في كل شأن من شئون الحياة وتفتحت أذهانهم. والابتكار وليد الذكاء والنشاط والمهارة، فلما اختص الأوروبيون بالنشاط والكفاح والذكاء اختصوا بالابتكار، واختص الشرق بالتقليد، هكذا قال البعض؛ فهل كانوا على صواب؟

لو نظرنا نظرة عامة في التاريخ القديم لوجدنا أن الشرقيين ابتكروا ابتكارات لا تقل شأنًا عن ابتكارات الغربيين، انظر إلى ما ابتكره «بوذا» الهندي من اكتشافات في النبات والفسيولوجيا، وما ابتكره الهنود من العِدد، وما أُثر عن الصينيين من ابتكارهم صناعة النسيج وتقدمهم فيها وأخذ الأوروبيين عنهم.

وأنجبت الحضارة الإسلامية مبتكرين في جميع مرافق الحياة أمثال عمر بن الخطاب الذي وضع نظامًا لحكم فارس والروم من غير مثال يعرفه، إذ كان راعي إبل في الصحراء، واخترع ابن الهيثم نظريات كثيرة في الرياضة، ووضع أمية بن أبي الصلت تصميمًا لمركب غارقة في بحر وقد نجح تصميمه، فصعدت المركب إلى سطح البحر، وفكر عباس بن فرناس في صنع الطائرات من قديم وطار بها مسافة؛ لولا أنه لم يكن قد اكتشف البنزين.

أفبعد هذا يصح أن نقول أن الشرق عقيم والغرب ولود؟ إني أعتقد أن المسألة مسألة نهضة تدب في روح الأمة فتجعلها فتية حية تخترع وتبتكر، ثم شيخوخة تحل محل الشباب وضعف يأتي بعد القوة وتحفُّظ يسود بعد التحرر، ثم يأتي بعد ذلك موت تطول مدته أو تقصر حتى تدب الحياة من جديد.

ولقد عاش الشرق فترة جمود طالت حتى اعتقد البعض أن الجمود خاصة من خصائصه، وقفت الحياة إلى ما وصل إليه الأولون، فلا تقدم ولا تجدد. النحو والصرف

الآن هما بعينهما نحو سيبويه وصرفه، وموضوعات الأدب هي بعينها موضوعات الأدب التي قال فيها الأولون، وأوزان البحور لا تزال تقريبًا الستة عشر التي عرفها الخليل. قال ابن قتيبة:

> ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين، فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيد البنيان؛ لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي. أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما؛ لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير. أو يَرِد على المياه العذاب الجارية؛ لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد؛ لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والعرار.

وكل خير في اتباع من سلف　　　وكل شر في اتباع من خلف

وطال زمن تقليد الشرق للمتقدمين، وجاءت النهضة الأوروبية فانتقل التقليد من متقدمي الشرق إلى محدثي الغرب، فخير أديب من قلد أدباء الغرب، وخير نظام ما أُخذ من أوروبا، وخير فن ما قرب من فن الغرب، والشاب يفخر أن جاء في حديثه كلمات من لغات غريبة.

ولست أدري ما سر هذا التقليد الذي ينتاب الشرق الآن؟ إن مئات الشرقيين الذين يتعلمون في أوروبا وأمريكا ينالون الدكتوراه بتفوق؛ وهي درجة لا تعطى إلا نتيجة الأبحاث المبتكرة. كل ما في الأمر أن الصناعة في الشرق لم تبلغ ما بلغته في الغرب؛ والصناعة هي الأساس في الابتكار، فالمصنِّع إذا شعر في صناعته بنقص ما أو بصعوبة ما، كتب إلى الجامعة لتبحث نقطة النقص وتعالجها، فكان من ذلك ابتكار جديد. وليس عندنا مصانع كهذه ولا لها بالجامعات اتصالات كتلك.

وكل هذه الصناعات وابتكاراتها ناشئة من ابتكار أساسين أو ثلاثة، كالبخار والكهرباء وما عدا ذلك فتوليدها، ولو رُزق الشرق في العهد الحديث أساسًا أو أساسين، ورُزق مصانع تولد هذا المبتكر وتستخرج منه ما يترتب عليه، ورُزقنا منهجًا في التعليم يوجه الناشئين إلى الابتكار لا إلى مجرد الحفظ؛ لانقلب الشرق رأسًا على عقب. فنحن نعتقد أن التقليد في الشرق عرَض من الأعراض يمكن زواله، لا طبيعة متأصلة فيه، بدليل أن اليابانيين والصينيين في العهد الأخير استطاعوا أن يتقدموا في العلم تقدمًا كبيرًا، وأن يؤسسوا مصانع ضخمة، فارتقوا في الصناعة وابتكروا فيها.

والابتكار يمكن أن يشمل كل مرفق من مرافق الحياة، في الطعام، في الملبس، في المسكن، في الحرية، في علاج الأمراض، في الصناعة، في كل مواد الإنتاج، في الألعاب، في المذاهب الفلسفية والدينية، في مختلف أنواع العلوم والآداب والفنون، في نظم التربية إلى غير ذلك، وهو عادة يظهر على يد طائفة قليلة، ثم يغزو القديم وينتصر عليه غالبًا. ونلاحظ أن الابتكار قد ينتشر سريعًا، وقد ينتشر بطيئًا، تبعًا للظروف والأحوال، وكلما كان الابتكار على يد أناس معروفين مشهورين كان انتشاره أنجح.

ومن الغريب أن كثيرًا من الابتكارات وليدة الفرصة والحظ، كاكتشاف الجاذبية من ملاحظة نيوتن لسقوط التفاحة، واكتشاف قوة البخار من اهتزاز غطاء إناء.

وقد كثرت الابتكارات في القرن الثامن عشر والتاسع عشر في أوروبا وأمريكا نتيجة للانقلاب الصناعي.

ثم إن الحياة الاجتماعية لما تحررت من استبداد الحكام وأمراء الإقطاع، وتحرر الناس من ظلمهم وقويت شخصيتهم وفرديتهم، ساعد كل ذلك على الابتكار.

وتزيد الحاجة إلى التجديد في الأزمات والحروب والكوارث والمجاعات وما يصيب الناس من السأم، فيكون ذلك كله باعثًا على التفكير للخروج من هذه المآزق بالابتكار، ويزيد في الابتكار أيضًا كثرة الثقافة وسعتها وارتقاؤها، وانتشار التفاؤل في الشعوب، وحب الشجاعة والرغبة في التحرر.

وليس المجددون متضامنين دائمًا فقد يحدث أن بعض المجددين يذهب إلى شيء جديد، ويذهب آخرون إلى شيء جديد آخر فتتصارع أنواع التجديد، ويبقى الأصلح. فليس عدو الجديد هو القديم فقط، بل قد يكون الجديد أيضًا. والشعوب المتأخرة تميل دائمًا إلى اتباع القديم وتكره الجديد وتعده نقمة وكلما اتسع أفق الشعب وقل تعصبه، زاد عنده قبول الابتكار. كما أن الحكام المستبدين الظالمين يكرهون الابتكار والتجديد؛ لأنهم يخشون على مراكزهم، فقد يؤدي الابتكار إلى تفكير وعمل للثورة على ظلمهم.

وليس الابتكار مرادفًا للثورة، فقد تكون ثورة من غير ابتكار وابتكار من غير ثورة.

ومما يؤسف له أن الحرب أدت إلى الابتكار لما فيها من أزمات وخوف من الانهزام، مع أن السلم قد يكون فيه من المتاعب ما يحتاج إلى ابتكار، كالذي أعقب الحربين العالميتين الأولى والثانية من منازعات وخصومات واضطرابات استدعت الخروج على القديم في النظريات السياسية والاقتصادية، ولكن غلب على الساسة والاقتصاديين المحافظة والجمود لا الابتكار.

والابتكار عادة ينبع من القديم مع تغيير فيه، فنحن إذا نظرنا للثورة الاقتصادية في إنجلترا وفي الولايات المتحدة وفي ألمانيا وفي اليابان، نجد أصولها موجودة في النسيج الأصلي في البلاد مع ابتكار استدعاه الحال.

وفي العادة يظهر المجددون المبتكرون، فيناهضهم الرجعيون المقلدون إما خوفًا من كساد تجارتهم؛ مثل مناهضة أصحاب الجمال في صحراء العرب للسيارات وأصحاب الحمير للعربات، وإما خوفًا على مراكزهم؛ لأن المجددين مسلحون بأسلحة خير من أسلحتهم. كما هي الحال في كل محاربة تنشأ بين معهد جديد ومعهد قديم، إذ العادة أن الجديد يكون أرقى، فتكون العاقبة له إن عاجلًا وإن آجلًا. على أنه قد ينجح الشيء الجديد المبتكر، لا لشيء إلا لمجرد الزهو باستعمال الأشياء المبتكرة كلبس «الموضات».

وقد بالغ الشرقيون في استخدام الأدوات الغربية المبتكرة، مع أنه قد يكون في عاداتهم القديمة ما هو خير منها.

وكلما كانت الأمور المبتكرة متمشية مع الطبيعة الإنسانية أو مساعدة على الراحة كان قبولها أكثر سهولة.

وقد تصادف المبتكرات حالة اجتماعية سيئة فتعوقها قليلًا أو كثيرًا، كالإصلاحات التي نادى بها السيد جمال الدين، والشيخ محمد عبده في مصر، وأحمد خان في الهند؛ لأن الأمم لم تكن مستعدة للتغيير، والحكام الشرقيين والمستعمرين وقفوا في سبيل الإصلاحات المبتكرة لأنها ضد مصلحتهم، وبالعكس قد توجد ظروف تساعد على نجاح الإصلاح، فنظرية النسبية لأينشتين جديدة مبتكرة ولم تجد صعوبة لأن من فهمها قليل من الراقين غير المتعصبين، والجماهير المتعصبة لم تفهمها، فلم تقف في سبيلها، ومثل ذلك انتشار الإسلام في حينه، وانتشار المسيحية بأوروبا، فقد وجدت في كليهما ظروف اجتماعية ساعدت على انتشارهما.

وعلى الجملة ففي رأينا أن الشرق يمكنه أن يبتكر ويبتكر كثيرًا، لو أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية ومناهج التربية تعاونت كلها على الابتكار. فنهوض الحالة الاقتصادية يمهد السبيل للابتكار الاقتصادي، والحكومة الصالحة ورقي الشعب يمهدان للإصلاحات الاجتماعية، ونظام التربية الصالحة يطبع النشء بطابع يسأم من القديم ويخلق جديدًا يغذي مطامعه ومطامحه. وفي هذا معنى أن الشرق ليس بطبعه عديم الابتكار.

الفصل العاشر

القيم الأخلاقية في الشرق والغرب

تكاد تكون القيم الأخلاقية واحدة في نظر الأمم المتحضرة جميعًا، فتكاد كلها تجمع على عد الشجاعة والعدل وضبط النفس والصدق فضائل وضدها رذائل، فهذه أمور لا يُختلف فيها بين شرق وغرب.

نعم إن الأخلاق الثانوية قد تختلف الأمم في النظر إليها، كمعاملة المرأة والأولاد، والاشتغال بالتمثيل والغناء، والقيام بأنواع الرياضات، بل قد يكون الأمر محمودًا ممدوحًا في بعض الأمم، مكروهًا مذمومًا في البعض الآخر، كتعدد الزوجات، وكذلك النوع من الأخلاق المبني على العادات والتقاليد، كعادة بعض البلاد في دفن المرأة إذا مات زوجها، ومثل بدع النساء في تطويل الذيل أو تقصيره، وفي الطلاق، وفي حل زواج الأقارب عند بعض الأمم وحرمتها في الأمم الأخرى. إنما الأمر المهم في التقويم الخلقي هو اختلاف نظرة الأمم في ترتيب الفضائل، وعد بعضها أقوم من بعض.

وتؤثر في ذلك عوامل كثيرة، كالبيئة، ومقدار الثقافة، والحالة الاقتصادية. فمثلًا كان العرب في جاهليتهم في حالة اجتماعية تجعلهم يضعون في أول قائمة الأخلاق الشجاعة والكرم؛ لأن الظروف كانت تحتم على كل إنسان أن يدافع عن نفسه ويحميها من غيره، إذ لا حكومة قوية ترعى الأمن وتحافظ عليه، ولهذا ضعفت قيمة الشجاعة لما قويت الحكومات وتعهدت بحفظ الأمن في البلاد، وكذلك فشا الفقر مع رحلات القبائل من مكان إلى مكان ومواجهة الناس ظروف كثيرة لا يجدون فيها ما يقيتهم، لهذا كان الكرم من أعظم الفضائل. ولما كانت أوروبا ممالك تعتمد على الصناعة والتجارة، كانت المحافظة على المواعيد والنظام، والاقتصاد، ونحو ذلك من أهم الفضائل عندهم، وفي كثير

من بيئات الشرق ترى السماحة والنبل أهم الفضائل، وإن لم تكن هذه الأخلاق أخلاقًا تجارية. كان لي صديق متزوج إنجليزية، صدمت سيارته يومًا سيارة أخرى وكان الخطأ خطأ سائق السيارة الأخرى، فنزل سائق السيارة الصادمة واعتذر لصديقي عما أصاب سيارته من تلف، فقال صديقي هذا: لا أهمية لاعتذارك الآن، فلنذهب أولًا إلى من يصلح العربة ويقدر قيمة إصلاحها وتدفعه، ثم اعتذر بعد ذلك فأقبل عذرك. عندما قص علي هذه القصة قلت: إن هذه ليست أخلاقك، إنما هي وحي من أخلاق زوجتك الإنجليزية. فالمصري عادة يتسامح في مثل هذه الأخطاء ويرجح جانب الكرم، بينما الأوروبي يرجح الجانب المادي ويؤاخذ كل إنسان بما ارتكبه، ومن أجل هذا ساد في أوروبا مذهب المنفعة الذي وضعه بنتام وجون استيوارت مل، ومقتضاه أن العمل يقاس بما فيه من لذة وألم لأكبر عدد ممكن، فإن رجحت اللذائذ الآلام ففضيلة، وإلا فرذيلة. أما الشرقي فيُدخل في الحساب الأشياء المعنوية البحتة، ويرى أن هنالك فرقًا كبيرًا بين أن تقدم لصاحبك وردة، وأن تقدم له قرشًا، وإن كانت الوردة بقرش؛ فإن تقديم الوردة الجميلة يحوي من المعاني والرقة وحسن الذوق ما لا يقدر بمال.

وأذكر أيضًا أني ركبت الترام مرة وبجانبي جلس ضابط إنجليزي، وأمامي عامل مصري، فلما وقف الترام في إحدى محطاته أراد العامل أن ينزل من ناحية الشمال، فأمسك الضابط الإنجليزي برجله ليمنعه، فظننت بحكم النظر الشرقي أنه يمنعه من النزول من الشمال رأفة به وخوفًا من أن يصاب بأذى، فشكرته على صنيعه فقال: لست أقصد هذا، وإنما أخشى أن ينزل من الشمال فيصدمه ترام آخر، فيتعطل السير، ولا أصل إلى المكان الذي أقصده في الوقت الذي يجب أن أصل فيه!

وقرأت مرة قصة تروي أن ضابطًا إنجليزيًّا كان في الزمن الماضي يركب حمارًا يوصله إلى ثكنته في العباسية، وانتهز الحمَّار جهل الإنجليزي باللغة العربية فأخذ يسبه سبًّا شنيعًا، فاستوقفه مصري آخر ثقل عليه هذا المنظر، وقال للإنجليزي أتدري ماذا يقول الحمَّار؟ قال لا، قال إنه يسبُّك سبًّا شنيعًا. قال الإنجليزي: أسبُّه هذا يعطلني عن الوصول إلى غرضي؟ قال: لا، قال: فدعه يقول ما يشاء. فهو قد قوَّم الأمر تقويمًا عقليًّا وماديًّا دون أي اعتبار آخر. ولا يفعل الشرقي ذلك فقد يشغل نفسه يومًا بأكمله بمسألة جزئية لا تقدم ولا تؤخر.

هذه الحوادث الجزئية تمثل الفرق بين نظر الشرقي ونظر الغربي وعلى كل حال فليست هذه الفروق في السلوك وفي تقويم الأخلاق مسألة شرق جغرافي وغرب جغرافي

— كما قلنا أكثر من مرة — إنما هي مسألة درجات في سلم الحضارة واختلاف في البيئات، بدليل أن الأمة الواحدة يختلف تقويمها للأشياء باختلاف تاريخها أو دينها أو نحو ذلك. لقد كان حجاب المرأة فضيلة كبرى والسفور رذيلة كبرى، فانقلب الأمر وأصبح السفور طبيعيًّا والحجاب رجعية، وقد كانت مزاولة المرأة المصرية لمهنة من المهن رذيلة، فاستسيغت اليوم بسبب ما حدث من تغير في اقتصاديات البلاد، وهذا يدل على أن هذه الأشياء ليست طبيعية في الأمم تبعًا لأقاليمها، ولكن الاختلاف يتبع المنزلة في المدنية ونوع المدنية.

إن كثيرًا من الاختلاف بين الشرق والغرب يرجع إلى الأحوال الاقتصادية التي شرحناها من قبل، وإلى سيادة الصناعة في الغرب وسيادة الزراعة في الشرق، ونظرة الصنَّاع إلى الأخلاق غير نظرة الزراع إليها، فالنظام مثلًا فضيلة تتطلبها الصناعة أكثر مما تتطلبها الزراعة، وارتباط الأسرة وتماسكها فضيلة تتطلبها الزراعة أكثر مما تتطلبها الصناعة.

ثم إن العلم لا الدين قد أصبح أساس الحياة في المدنية الغربية، وتبع ذلك أن العلماء اليوم هم الذين يرسمون الخطط ويدعون إلى الإصلاح، بدلًا من رجال الدين والأولياء، ومن الغريب أنهم مع إيمانهم بالعلم في حياتهم يستندون إلى الدين إن احتاجوا إليه، كما في التعصب ضد المسلمين والتبشير ضد الوثنيين، وفي تلك الحالات يتجلى فقط إيمانهم بالدين، أما فيما عدا ذلك فلا دين. اعتبر في ذلك برجال الدين الجزويت، فالفرنسيون لا يسمحون بفتح مدارس لهم في بلادهم؛ لأنهم يرمونهم بالتعصب الديني، ولكنهم يؤيدونهم ويشجعونهم على التبشير، وفتح المدارس في البلاد المستعمَرة، ومنذ أن تحولت الأخلاق من دين إلى علم، بطل الوعظ والإرشاد تقريبًا؛ لأن طبيعة العلماء تقرير ما يعتقدونه حقائق من غير دعوة إليه، أما طبيعة الدين فوعظ وإرشاد.

ومن الجنايات على الأخلاق في الغرب انتشار الإعلانات عن السلع انتشارًا مزعجًا، وضرر هذه الإعلانات أنها لا تلتزم الصدق وأنها لا تقصد إلا إلى الربح، سواء اتفق العمل مع الأخلاق أو لم يتفق، وأنها دعوة خبيثة إلى الترف، فالتشويق إلى محلات الرقص والملاهي، والتشويق إلى النماذج الجديدة من السيارات وآلات الراديو ونحو ذلك ضار ضررًا بالغًا، حتى من لم يستطعها من الفقراء أغروه باستخدامها بالتقسيط. ومن عيوب هذه الإعلانات، وإن كان عيبًا غير مباشر، أن من طبيعتها الدعوة إلى الجديد

دائمًا، والتحقير من القديم. فنموذج سنة ١٩٥٣ في السيارة خير من نموذج سنة ١٩٥٢، وقد تبع ذلك الرغبة في كل جديد، وتفضيله دائمًا على القديم، وتبع ذلك أيضًا تفضيل الأخلاق الجديدة على الأخلاق القديمة تفضيلًا عامًّا مع أنه قد يكون في الأخلاق القديمة التي كان يدعو إليها الدين ما هو خير من الأخلاق التي تدعو إليها الحياة الجديدة.

ومما زاد الأخلاق سوءًا أنهم نظروا إليها على أنها مسائل اعتبارية واتفاقية، لا أساس لها ترتكز عليه، كمذهب البرجماتزم الذي لا يرى شيئًا خيرًا لذاته ولا شرًّا لذاته وإنما ما أوصل إلى الغرض كان خيرًا على أية حال كان. ونظرتهم هذه كما أخذوا بها في الأخلاق تبنوها أيضًا في السياسة. ثم إنهم تبعوا دارون في قوله إن أصل الإنسان حيوان وطبيعة الحيوان النمو والنضج من غير قائد ولا هادٍ، فالشجرة تنمو من البذرة على سنتها الطبيعية، ولا تحتاج إلا إلى دفع ما يعوق نموها، فكذلك قالوا في الإنسان، هو سائر بطبيعته إلى نموه، ولا يحتاج إلى هادٍ يهديه، وبذلك استغنوا عن الواعظ والمرشد، واستغنوا عن المبادئ الهادية، ونادى زعيم من زعمائهم وهو «لورانس» الأديب المشهور بأن اللقانة وحدها كافية في هداية الإنسان، وعلى هذا تكون كل مطالب الغرائز جيدة ولا تحتاج إلى تدخل العقل وضبطها إلا عند اضطرابها، وعلى ذلك يكون السلوك ومبادئ الأخلاق والذوق لا قيمة لها بجانب الإحساس باللذة، وهذا الرأي في منتهى الخطورة على السلوك الإنساني؛ ولذلك كله يلاحظ الإحصائيون أن القائمين بالأعمال الجدية يتناقص عددهم، بينما المشتغلون بالملاهي والملذات يزدادون باضطراد، فيزداد عدد الراقصات في الملاهي وصناع السجاير وصناع أجهزة الراديو … إلخ، وهذا مظهر لا يدعو إلى الارتياح.

ومما يلاحَظ أن الأخلاق لا يكفي فيها أن تكون مجرد قواعد عقلية كما يرى الغرب، بل يجب أن تدعمها قوة روحية كما يرى الشرق، يعتمد عليها ساعة اليأس، وتعينه على مواجهة المشاكل، وقد كان في الأخلاق من قبل هذا المعنى يوم كانت مرتبطة بالدين، فلما أُسست على العلم فقدت هذا المعنى؛ ولذلك اضطرب الناس واحتاروا، فلما أحس العلماء بذلك بحثوا عن مقياس آخر يقيسون به الأخلاق، فمنهم من ذهب إلى أن مقياس الخلق هو مقدار مساهمة الشيء في بناء العلم أو عدمه، ولكن هذا مقياس دقيق جدًّا لا يصلح للأشخاص العاديين وهم الجمهرة العظمى، ومنهم من ذهب إلى اتخاذ المنفعة مقياسًا؛ أي إن العمل يكون حسنًا إذا أنتج أكبر سعادة لأكبر عدد، وهو أيضًا قول مشكوك فيه وليس مقياسًا واضحًا يسهل الرجوع إليه. ولولا أن الناس لا يزالون

عندهم بقية من تقديس الأخلاق المبنية على الدين، وخصوصًا الجماهير، لساءت الحال أكثر من ذلك. وعلى الجملة فقد هجر الغرب فكرة ارتباط الأخلاق بالدين، ولكنه لم ينجح في إحلال شيء ثابت محله، والشرق لا يزال يؤسس الأخلاق على الدين؛ ولذلك يقدسها.

وكلامنا هذا منصب على الشرق قبل أن يقتبس كل شيء من الغرب ومنها الأخلاق.

الفصل الحادي عشر

مادية الغرب وروحانية الشرق

اعتاد الكاتبون أن يصفوا الشرق بالروحانية، والغرب بالمادية. حتى قال فنلبند في كتابه «تاريخ الفلسفة» إنه قد التقت في الإسكندرية أيام أينعت فلسفتها، مادية الغرب بروحانية الشرق، وجرى على أثره كثيرون، وقد طعن — أخيرًا — في هذا المعنى بعض الكُتاب، إذ قالوا إن الغرب يفوق الشرق أيضًا في الروحانيات كما يفوقه في الماديات فنجد أن عواطفه أرق، وأن عنايته بالمستشفيات والملاجئ وتنظيم الإحسان أرقى. فإن أردنا بالروحانيات الخرافات والأوهام كتحضير الجن والسحر فالغرب فيها حقًّا خير من الشرق، وإن أريد بالروحانيات رقي العواطف وأعمال البر والإحسان فذلك في الغرب خير منه في الشرق أيضًا، وبناء على ذلك يكون الغرب أرقى في الماديات والروحانيات جميعًا.

ولكن يظهر لنا أن للمسألة وجهًا آخر غير الذي ذهب إليه هؤلاء الكُتاب، وهو أن الناحية الروحانية غير الناحية العقلية، وغير الناحية العاطفية، ويتجلى ذلك في الشرق في أمور:

الأول: أن الشرق منبع الديانات الكبرى، فاليهودية والنصرانية والإسلام وهي الثلاثة أديان الكبرى في العالم، بل ومذاهب بوذا وكنفوشيوس وزرادشت، كلها نبعت في الشرق، وانتقلت منه إلى الغرب، وقد كانت ولا تزال في الشرق أعظم منها في الغرب، ولا شك أن هذه الأديان كلها تبعث في النفس روحانية على نحو غير ما يُقصد بالناحية العقلية والعاطفية منها.

ومن خصائص هذه الروحانية مزجها الطبيعة بما فوق الطبيعة، والاعتقاد بأن الله سبحانه سبب كل ما يحدث في العالم من خير أو شر. وتقرأ الكتب الثلاثة السماوية من توراة وإنجيل وقرآن، فتراها تكرر أن كل ما في العالم من صنع الله،

وهو المدبر له والمنظم لشئونه حتى أدق الأشياء «وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين» وهو الذي يرسل السحاب، وينزل الغيث ويخالف بين الألوان والألسنة، وهو الذي يقدر سعادة الإنسان وشقاءه … إلخ إلخ.

وعلى الجملة فإن هذه الكتب وما جرى على منوالها لها تعاليم ومنهج غير التعاليم والمناهج التي تجدها في الكتب الغربية الحديثة. وقد أدرك أبو هندو في القرون الوسطى ذلك فألف كتابًا في الفرق بين أساليب القرآن وأساليب اليونان.

ولا شك أن هذه المناهج المختلفة بين أساليب الكتب المقدسة وأساليب الكتب الغربية لها أثرها المختلف في الشرق والغرب، ولسنا ننكر أن في الغرب روحانيين مشهورين مثل سبينوزا، ومثل ما سمعت به من جمعيات صوفية في جنيف كان يرأسها المرحوم عنايت الله، وكانت تضم متصوفين من كل الأجناس.

وأنا أعتقد أن في كل إنسان قبسًا من هذه الروحانية يختلف كبرًا وصغرًا، شأن الناس في ذلك شأنهم في الحب.

والروحاني قادر على الاتصال بالروح الأبدية والسمو إليها وإدراك كنهها، وهو دائمًا يقول: إنه إذا وصل إلى ذلك رأى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. والروحاني من هذا القبيل يرى أنه يصل إلى هذا الحد بقلبه لا بعقله، ويرى أن إدراك ذلك بالقلب أقوى من إدراكه بالعقل. وقد حكوا عن أفلوطين أنه وصل إلى هذه الدرجة في حياته مرة واحدة. وحكي عن غيره أنه أدرك هذه الدرجة مرارًا حتى أصبحت طوع يده، كما حكى ابن طفيل في كتابه «حي بن يقظان».

الثاني: أنه كان من أثر انتشار الأديان والتعمق فيها أن قيست أمور الحياة بمقياس غير مادي، فالعمل في الغرب يقاس بنفعه أو ضرره فقط، أما في الشرق فإنه يقاس أيضًا بمقياس حلِّيته وحرمته، برضى الله عنه أو عدم رضاه، وقد بلغ هذا النظر بالغرب إلى حد أن نشأ مذهب كبير يرى قياس الأمور خيرها وشرها بمقياس اللذة والألم. من أجل هذا كان ترتيب الفضائل في الشرق غيره في الغرب، فالمروءة والسماحة والنبل والطاعة من أكبر الفضائل في الشرق، بينما يعد من أكبر الفضائل في الغرب حفظ الميعاد والاقتصاد والصدق في المعاملة.

الثالث: أن الناس في الشرق عادة — وهذا من أثر الأديان أيضًا — يقدرون في أعمالهم وغاياتهم في أعمالهم الحياة الأخرى كما يقدرون الحياة الدنيا، فحسبوا حساب ما

ينالهم من الجزاء الأخروي بجانب الجزاء الدنيوي، وأضافوا في أعمارهم الآخرة إلى الدنيا، ولا شك أن هذا نوع من الروحانية. أما الغربيون فالدنيا وحدها هي التي تدخل في حسابهم.

إن الشرقيين يبنون حياتهم على الاعتقاد بأن هناك عالمًا آخر هو المسمى بعالم الغيب، فيه الجنة والنار، وفيه الملائكة والجن، وفيه المعجزات ... إلخ وكلها أمور روحانية لا مادية يحار فيها العلم.

نعم، إننا لا ننكر أن بين الغربيين من يبني حسابه على جنة ونار، وعلى دنيا وآخرة، ولكنهم ليسوا كالشرقيين في ذلك وحتى هذا القدر كان نتيجة للاعتقادات الدينية التي انتقلت من الشرق إلى الغرب.

الرابع: أن من مظاهر الحياة الروحانية في الشرق الاعتقاد بالقضاء والقدر والحظ وكرامات الأولياء ونحو ذلك، ليس له نظير في الغرب.

الخامس: ما يظهر في أعمال الغربيين عادة من إمعان في حساب الربح، فإن رجحت كفة الفوائد بعد حساب النفقات أقدموا على العمل وإلا فلا، ولا نظر عندهم إلى خير الإنسانية أو ضررها.

فالمصانع الكبيرة لإنتاج الآلات الحربية من مدافع وطيارات وغواصات وأمثالها تقوم على مقدار ما تنتجه من الربح، ولو أهلكت الملايين من الناس، والنظر الروحاني في هذه الأعمال يختلف كل الاختلاف عن هذا النظر المادي، فهو لا يبيح إنشاء مصانع لآلات القتال لأنها تبيد الإنسانية وإن أربحت مالًا وفيرًا. وقد كان غاندي في بعض مواقفه يتحدى بروحانيته العالم المادي كله بقنابله وأساطيله وطياراته وغواصاته وكثيرًا ما كان ينجح، وهو الرجل الضعيف الأعزل الذي يعيش على لبن ماعز.

وكثيرًا ما نعى المصلحون على أوروبا إفراطها في المادية، وعبروا عن ذلك بقولهم: «إن الغرب قد اختل توازنه، فنما عمله، ونمت صناعاته، ونما علمه، ونمت كل مرافق الحياة، ولكنه لم ينمُ قلبه»، وهذا التعبير يساوي ما قلناه من قبل في الحياة الروحانية والمادية.

نعم، إن الروحانية في الشرق بولغ فيها، كما بولغ في مادية الغرب، فاعتراها كثير من الخرافات والأوهام من تدجيل وتخريف، واعتقاد شديد في الأرواح، وغير ذلك من الأوهام، ويظهر ذلك أكثر ما يظهر في الناحية التي تشيع فيها الروحانية كالتصوف.

فكم مُني التصوف بالدجالين؛ لأن التصوف مبني على الذوق لا على العلم والعقل، وإذا بني على الذوق أمكن أن تقوم فيه الادعاءات الكاذبة والأقوال الفاسدة.

ومن النتائج السيئة لهذه الروحانية المفرطة الكسل والقعود عن العمل والضعف وعدم الأخذ بأسباب القوة، مما جعل حياة الناس في عزلة، يعيش أكثرهم عالة على بعضهم، والحق أن هناك روحانية صادقة تدعو إلى العمل لا إلى الكسل وتؤمن بالقدر، بقدر.

ويظهر أن هذه التفرقة بين مادية الغرب وروحانية الشرق تفرقة عميقة في ثنايا التاريخ، فهم يحدثوننا أن فلسفة الهند من قديم الزمان كانت متجهة إلى تحليل النفس الداخلية وتأملاتها، وتعدَّوا في ذلك منطقة الحواس ووُفقوا في اكتشاف أشياء كثيرة. أما اليونانيون فكان اهتمامهم موجهًا إلى معرفة قوانين العالم الخارجية، وتحديد مقام الإنسان في العالم الخارجي، فكانت نزعتهم خارجية في حين كانت نزعة الهند داخلية. أما الصينيون فلم يهتموا بطبع الإنسان الداخلي ولا بالطبيعة الخارجية، بل اهتموا بعلاقة الإنسان مع الإنسان، وانبنى على ذلك اختلاف في الفلسفات؛ فالفلسفة اليونانية منذ القدم اهتمت بعمل الإنسان الخارجي أكثر من اهتمامها بالإنسان نفسه، نعم إن بعض فلاسفة اليونان الأقدمين رأوا الإنسان جوهرًا روحانيًّا ولكن أرسطو حوَّل الفلسفة إلى الاهتمام بأعمال الإنسان في الحياة، وتأثرت الفلسفة اليونانية بقوله: «إن الإنسان حيوان عاقل.» وإذ كان الأوروبيون وارثي الفلسفة اليونانية قد تأثروا بها وجروا في طريقها، وقد بالغ الأوروبيون في القرن السابع عشر في الدعوة إلى قهر الطبيعة والتغلب عليها. فالفلسفة الغربية تدعو إلى الكفاح ضد الطبيعة، والفلسفة الشرقية تدعو إلى مصادقة الطبيعة.

وبهرت الانتصارات العلمية العقل الغربي فزاد الغربيون في طريقتهم تحمسًا، وبالغوا في اعتناق قول أرسطو أن الإنسان حيوان عاقل، فذهب دارون إلى أن الإنسان إنما تسلسل من الحيوانات، وقال ماركس إن عقلية الإنسان من نتاج محيطه الحيواني. وجاء فرويد في القرن العشرين فقال إن الإنسان لم يتسلسل من الحيوان فقط، بل لا تزال عقليته تحافظ إلى اليوم على بقايا أصله الحيواني.

كل هذا بينما الفلسفة الشرقية وخصوصًا الهندية تلح في القول بروحانية الإنسان. وجر التفكير النفسي إلى التصوف؛ فقال المتصوفون إننا لا يمكننا أن نفهم الإنسان إذا قلنا إنه مادة فقط. وغلا بعض الصوفية في ذلك فقالوا بوحدة الوجود، وبأن جميع

الأشياء مظهر لوجود الله، وقالوا إن الله خلق آدم على صورته، وشبه الصوفية الإنسان بموجة من أمواج البحر الذي لا نهاية له، وذلك البحر هو الله، وهو شعاع من الشمس، وتلك الشمس هي الله. والإنسان لا يرى ذاته إلا إذا جردها من شهواتها وقد ساعد الدين من يهودية ونصرانية وإسلامية على تقوية هذه النظرة، من ذلك مثلًا ما جاء في التوراة من أن الله خلق الإنسان على صورته.

وقد أثر التصوف في موقف المسيحية، فدعت إلى كبت النزعات المادية، والإسلام نفسه عظم من شأن الإنسان، وجعل الإنسان خليفة الله في الأرض، وفكرة خلافة الإنسان لله أثرت تأثيرًا عميقًا في الفلاسفة المسلمين، إذ قرروا أن هناك علاقة مباشرة بين الإنسان والله، وأن الإنسان فوق جميع الخلق، واستندوا إلى ما جاء في القرآن ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقد تأثر الفلاسفة المسلمون بأرسطو ولكنهم لم ينسوا ما جاء به الإسلام من نظرية خلافة الإنسان لله، والعلماء المسلمون كالغزالي والرازي والراغب والأصفهاني قد زادوا في النظرية القائلة بأن الإنسان يشترك مع الله في صفاته.

والقول بوحدة الإنسان والله، أو بعبارة أخرى بوحدة الوجود، جعلت المجتمع الإنساني الإسلامي أقل مبالاة بالمصائب التي تحل بالناس، إذ إن الإنسان فيض إلهي، فكل ما يفعله الإنسان هو في النهاية فعل الله، وكل ما يقع يقع بإرادة الله، والإنسان ليس إلا ريشة في مهب الرياح؛ ولذلك كثيرًا ما نجد في الحياة الاجتماعية الشرقية عدم الاهتمام بالكسب والسعي إلى الرزق، حتى ولا بإزالة أسباب الأمراض.

أما الفلسفة في الغرب فسيطر عليها القول بالعلة والمعلول، والنتيجة أنه بينما كان الشرقي يهتم بحياته الفردية، ويتخذ الوسائل لخلاص نفسه، اهتم الغربي برفاهية المجتمع المحيط به، وبينما جعل الغربي العلم وسيلة إلى رفاهيته جعله الشرقي غاية.

والخلاصة أن الشرقي يرى أن الإنسان فيض إلهي يشترك مع الله في صفاته، وقد سخر الخلق كله له، أما الغربي فيرى أن الإنسان حيوان يكافح العالم الخارجي، والشرقي يقول بالكيان الروحاني والغربي يقول بالتقدم الإنساني.

فإن نحن نقدنا المادية في جفافها، وقصرها حسابها على الظاهر دون الباطن وعلى الربح دون خير الإنسانية؛ فإننا ننقد الروحانية في أنها سمحت للأفكار الضالة أن تتسمى باسمها وتعيش بجانبها، وإذا نحن تمنينا شيئًا في هذا الموضوع؛ فإنَّا نتمنى أن تطعم روحانية الشرق بالمادية العاقلة التي تدعو إلى القوة واستخدام العلم في مرافق

الحياة، كما نتمنى أن تطعم مادية الغرب بشيء من الروحانية الصادقة، لا دجل فيها ولا أوهام ولا خرافات.

إنه إذا حصل ما نتمنى أضفنا إلى روحانية الشرق يدًا عاملة وقوة حاسمة، وإلى مادية الغرب قلبًا نابضًا وشعورًا فياضًا، ولكن أنى لنا ذلك والمطلب عسير، وتحقيقه يحتاج إلى شعوب قد عرفت المادية والروحانية ثم صممت أن تسير في الطريق الذي تجمعت فيه مزايا الاثنتين وخلا من عيوبهما.

الفصل الثاني عشر

موقف الشرق من الغرب

جاء القرن الثامن عشر والشرق متميز عن الغرب كل التميز في شئونه الاجتماعية والاقتصادية، فلو أراد مؤرخ أن يصف الفروق بين الشرق والغرب وقتئذ أمكنه أن يميز بينهما كل التمييز، لا كما هي الحال اليوم.

ثم حدث أن نهض الغرب نهضته وثار ثورته الصناعية، فأنتج نتاجًا كبيرًا، ورأى أن أسواقه وحدها لا تكفي في توزيع سلعه فاتجه نحو الشرق وغزاه، وكان الشرق ضعيفًا في جيشه وفي حياته الاجتماعية وفي حياته الاقتصادية، يعيش عيشة بدائية فانكسر أمام الغرب، وظلت بلاده تسقط في يد الغربيين واحدة إثر واحدة.

وعن هذا الطريق دخلت المدنية الغربية، وكان أمام دخولها طريقان؛ الأول: أن تدخل بالسيف والنار والقوة العسكرية، وتحطيم القوى الشرقية، واكتساح كل ما يعارضها لا كغاية بذاته وإنما مقترنًا بالاستعمار والسيطرة الاقتصادية والسياسية، والثاني: أن تدخل المدنية الغربية بالتفاهم والإرشاد الهادئ، ومعاملة الأخ الكبير للأخ الصغير والولي العادل للقاصر. ولكن مع الأسف كان دخول المدنية الغربية بالطريقة الأولى فاستُقبلت لا بالترحيب والتهليل ولكن بالهلع والفزع.

وقد وضع المستعمرون الغربيون للمستعمرين الشرقيين قواعد تستنبط من أعمالهم:

(١) أن ما كان في مصلحة المستعمر عُمل.

(٢) أن ما كان في مصلحة المستعمَر وفيه ضرر على استغلال المستعمِر لم يُعمل.

(٣) أن ما كان فيه منفعة للطرفين قد يُعمل وقد لا يُعمل. وعلى هذا الأساس شجع المستعمرون مثلًا تنمية الزراعة ووسائلها، فنظموا الري تنظيمًا حسنًا؛ لأن بلاد

المستعمرين غير زراعية بل صناعية، وفي تنمية الزراعة في البلاد الشرقية زيادة الغلة، وإذا زادت الغلة انتفع الغرب أضعاف انتفاع الشرق بها.

ومن أمثلة ذلك مد السكك الحديدية في البلاد الشرقية ما أمكن؛ لأن في مدها فتح أسواق جديدة للمستعمر. ومن أمثلة ذلك أيضًا عدم تشجيع الصناعة لأن هذا يضر الصناعة الأوروبية، فخير أن تبقى البلاد الشرقية بلادًا زراعية. ثم يشجعون التعليم بقدر ما يوجِد التعليم موظفين صالحين للسير بالإدارة الحكومية لا أكثر؛ ولذلك شجع اللورد كرومر إنشاء الكتاتيب وحارب إنشاء الجامعة في مصر.

فإذا تم الفتح تسلطت الدولة المستعمرة الفاتحة واستخدمت كل قوتها في كبح بوادر النهوض، وتخويف الرعية والفتك بها، وإذلال أهلها بشتى الوسائل.

هكذا كان الاستعمار في أول العهد به.

ثم خفَّت قوته بعض الشيء، وحل محل التبجح بالقوة نظرية مسئولية الرجل الأبيض؛ أي إن الرجل الأبيض مسئول عن المدنية وعن تقدمها وواجب عليه أن يأخذ بيد المتخلف كالشرقيين.

وعلى هذا الأساس قامت فكرة الانتداب؛ أي إن دولة غربية متقدمة تُنتدب لإصلاح أمة متخلفة وهو اسم جديد للاستعمار.

على كل حال دخلت المدنية الغربية البلاد الشرقية في عنف، وأخذ الغرب يفرض مدنيته، فمد السكك الحديدية ونظم البريد ونظمت الحكومات تنظيمًا غربيًّا وأسست الطباعة والصحف والمجلات إلخ، ولكن يجب أن يلاحظ أن أكثر البلاد الشرقية كانت ربيبة حضارات قديمة كمصر والصين والهند، فكان لها استعداد لقبول الحضارة الغربية لا عاجزة عن ذلك بطبعها كسكان بعض البلاد المتأخرة، فحدث أن امتزجت الحضارة الغربية ببقايا الحضارات الشرقية امتزاجًا غريبًا جعل الحياة الشرقية معقدة كل التعقد، حتى لا تكاد تجد شيئًا شرقيًّا بحتًا ولا غربيًّا بحتًا.

ونلاحظ أمرين؛ الأول: أن اقتباس الماديات من الغرب كان أقوى وأكثر من اقتباس المعنويات.

والثاني: أن كل طبقة اقتبست بقدر استعدادها، فاقتباس أهل المدن كان أقوى من اقتباس أهل القرى، واقتباس المثقفين أقوى من غير المثقفين، واقتباس الطبقة الأرستقراطية أقوى من اقتباس عامة الشعب.

وكلما جاء جيل اقتبس من المدنية الغربية أكثر من آبائه؛ ولذلك اتسع مجال الخلاف بين الأبناء والآباء وسبَّب ذلك اضطرابًا وحيرة واصطدامًا بين الجديد والقديم والمحافظين والأحرار.

تُرى ما الذي كان يصير إليه الشرق لو لم يفتحه الغرب؟ أكان يتطور تطورًا طبيعيًّا ولو بطيئًا أو كان يبقى خاملًا مريضًا حتى يموت؟ مهما كان الجواب فإن الغرب قد هز الشرق هزًّا عنيفًا، وأيقظه من نومه وفتح عينيه وحثه على الجد والعمل، شاء الغربي ذلك أو لم يشأ. فلما استيقظ الشرق أخذ يتلقى عن الغرب دروسًا كثيرة، درسًا بعد درس، وإن كان بعض هذه الدروس شديدًا قاسيًا. ومن حسن حظ الشرق أنه كان على استعداد لتلقي هذه الدروس وأن له من الذكاء ما جعله يفهمها، وكان من ضمن هذه الدروس المطالبة بالحرية والاستقلال؛ لأنه تعلم أن في المدنية الغربية شيئًا كثيرًا من ذلك. فلما طلب الشرق الحرية وفقًا للدرس الذي علَّمه إياه الغرب، أبى عليه الغرب ذلك وتجهم له وعبس في وجهه، وكان شأن الغرب في ذلك شأن المحامي الكبير الذي يعلِّم محاميًا ناشئًا، فإذا أتى المحامي الناشئ يترافع حسب ما علَّمه أستاذه أبى عليه الأستاذ ذلك. وأخذ الشرق يكِن البغض للغرب، وقابل الغرب البُغض بالبغض حتى فاض الشرق بذلك وتحول بغضه إلى عمل. وتنعكس هذه الصورة في تاريخ زعماء الشرق، فدعاة الإصلاح الأولون أمثال خير الدين التونسي في تونس ومدحت باشا في الأستانة والشيخ محمد عبده في مصر، كانوا مسالمين يدعون قومهم في هدوء وسكينة أن يسالموا الغرب ويأخذون منه خير ما عنده، كما كتب خير الدين ذلك في كتابه «أقوم المسالك» وكما كتب مدحت باشا ذلك في مذكراته، وكما كتب الشيخ محمد عبده ذلك في كثير من مقالاته، فلما ظهر العداء في الشعوب رأينا زعماء الشرق يناهضون الغرب، ويشهرون بأعماله، ويبدون له الخصومة، وظهر أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ومن بعدهم يدعون الشعب للكفاح ضد المستعمر، وأصبحت كل الطبقات على اختلافها تكره المستعمرين وإن اختلفت أسباب هذا الكره؛ الملوك والأمراء يكرهون المستعمرين لأنهم سلبوهم سلطتهم، والأغنياء يكرهونهم لأنهم على دين ملوكهم، والفلاحون يكرهونهم لأنهم من غير دينهم، وحتى الذين ذاقوا ظلم العثمانيين وعسفهم، نسوا ذلك وأصبحوا يضمرون الضغن، وزاد في الضغن ما كان يظهر من الأجنبي المستعمر من غطرسة واستكبار وشموخ بالأنف، وشعور الشرقيين

بأن هؤلاء الأجانب ليسوا من أهلهم ولا دينهم ولا يتكلمون لغتهم. وزاد في ذلك أن بعض أمم الغرب كانت تبعث بممثلين لها لا يتصفون بشيء من العدل ولا من الرحمة فكرَّهوا الشعوب فيهم وفي أممهم.

يضاف إلى ذلك أن الشعوب الشرقية كانت أول الأمر تعتقد أن القدر ابتلاهم بالغرب ابتلاءً دائمًا، وأن الأمل في إخراجهم ضعيف لأنه ليس عندهم من القوة العسكرية ما عند الغربيين، فماذا يعملون إزاء الدبابات والغواصات والطيارات والجيوش المسلحة بأنواع الأسلحة المختلفة؟ ثم فهموا أن القوة العسكرية ليست كل شيء، فهناك قوى أخرى تزلزل قدم العدو، من مقاطعة البضائع وعدم تعاون واتحاد كلمة ونحو ذلك. وزادهم إيمانًا بذلك أنهم رأوا أن هذه الطرق جُربت فنجحت كما حصل في الهند، إذ كان غاندي الضعيف الذي لا يملك إلا مغزله ولا يأكل إلا لبن عنزه، أقوى من كل الجيوش والأساطيل الإنجليزية. فكثر أملهم في الخلاص، ثم حدثت حوادث قوَّت أمل الشرق، كاختلاف البلاد الغربية بعضها مع بعض، إذا كان الاختلاف بين فرنسا وإنجلترا مثلًا سببًا في استقلال لبنان وسوريا، وجاهر بعض المصلحين كولسن وروزفلت بتعاليم من مقتضاها حق كل أمة في تقرير مصيرها، فألهب ذلك حماسة الشرقيين.

وأخيرًا لم يبقَ حجر عثرة إلا حفنة من زعماء الغرب وقادة السياسة فيه، جمدوا على آرائهم وأبوا أن يسايروا الزمان، ولا بد أن يأتي يوم يفهمون هذه الحقيقة، أو لا يفهمونها فيحل محلهم من يفهمها فيتكشف الأمر عن استرداد الشرق حقوقه وإذ ذاك يسير مع الركب.

بجانب فتح الغرب للشرق سياسيًّا فتحه له اقتصاديًّا، بل قل إن الفتح الاقتصادي كان داعيًا للفتح السياسي؛ فإن الثورة الصناعية في أوروبا كانت ثورة كبيرة لم يسبق لها مثيل في التاريخ، والتاريخ يدلنا على أن التقدم الصناعي كان بطيئًا جدًّا إذا لاحظت تاريخ الصناعة من أقدم العهود إلى ما قبل الثورة. فلما جاءت الثورة طفر التقدم، فالمركبات والسفن مثلًا كانت تعتمد قبل القرن التاسع عشر على الريح والعضلات كما كانت منذ أقدم العصور، فلما جاء القرن التاسع عشر أخضعت الطبيعة لأمر الإنسان، وعرف البخار والكهرباء واللاسلكي والبترول فطفرت الصناعة، وأخذت المنتجات الصناعية تتدفق مما أكسب أوروبا ثروة كبيرة، وغزت هذه المواد كل بقاع العالم. وكان الشرق يعيش على الزراعة وحدها تقريبًا، ولم يكن يحسن من الصناعة إلا

بعض الكماليات التي لا تصلح إلا للطبقة الأرستقراطية، وكانت هذه الكماليات تعتمد على الأيدي، ولا يمكن أن تزاحم منتجات الآلات في رخصها، أضف إلى ذلك الكفاية العقلية والخلقية واليدوية، فقد كانت كلها ضعيفة بين العمال. ثم إن تقدم الصناعة يحتاج إلى رءوس أموال كبيرة والشرقي إذ ذاك لم تكن عنده الجرأة في تسخير ماله للصناعة، فهو لا يتصور المال إلا للكنز، وإذ ذاك كثرت الكنوز في الأرض وفي حيطان المنزل، وفي السواقي وكثرت الحكايات في العثور على الكنوز، فإن أنفق المال، فإنما ينفق في الإفراط في الشهوات وأنواع الترف.

ونتيجة ذلك كله فقد الشرق القدرة الاقتصادية، ولم يستطع أن يقف أمام تيار الغرب، فتدفقت السلع الغربية وانهزمت السلع الشرقية، هذا إلى أنه لما استعمِر الشرق شجع المستعمرون السياسيون المصنوعات الأوروبية وخذلوا الصناعة الشرقية بكل الوسائل، وكان جمهور الشرق فقيرًا ففضل السلع الأوروبية لرخصها إذ لا يهمه غير ذلك.

وانهارت الصناعات الشرقية كانهيار «برانع» الحمير أمام السيارات، وبدأ الشرقي يشعر بعد ذلك بوجوب إنشاء مصانع يجاري فيها الغرب، ولكن عبئًا ثقيلًا كان يثقل صدر الشرق وهو أن سياسة الغرب انحصرت في تأخير تصنيع الشرق أطول وقت ممكن.

وإذا كانت سيطرة الغرب على الشرق لم تعد بالوضوح الذي كان قبلًا فإن سيطرته الخفية قد غدت أشد خطرًا. فإنه إذا كان الشرقي العادي يستنكر وجود جيش أجنبي في أرضه، أو سياسيين أجانب على رأس حكومته؛ فإنه لا يدرك بسهولة مدى الخطر الذي يصيبه ويصيب شعبه من سيطرة الأجنبي على موارده واقتصاده، ومن هنا يبدو خطر هذا الخفاء.

وقد نتج عن هذين الفتحين السياسي والصناعي تغير كبير في العادات والتقاليد ونظم الحكم والإدارة، ولم يكن هذا التغير كله أوروبيًّا، فإن الشرقيين قبسوا كما قلنا قبسة من الغرب وقبسوا قبسة من حضارتهم القديمة.

والمستشرقون الذين كتبوا عن الشرق دُهشوا لما عادوا بعد غيبة طويلة فرأوا تغييرًا كبيرًا وأوضاعًا جديدة لم يكونوا قد رأوها، حتى الآراء العقلية نفسها حصل فيها مثل هذا التغير ومثل هذه الاقتباسات، فأفكار حرة بجانب أفكار محافظة، والمرأة تطالب بأن تنتخِب وتُنتخَب ... إلخ.

وعلى الجملة فإنا نرى أن الفتح السياسي والاقتصادي جعل الشرق يسير سير الغرب شيئًا فشيئًا، ويبتعد عن حضاراته القديمة شيئًا فشيئًا، ومنطق الناس، حتى المفكرين منهم، هو أن يتساءلوا دائمًا في كل ما يُعرض لهم: ماذا يفعل الغرب في هذا الموضوع، في السياسة وفي العلم وفي القانون وفي الاقتصاد وفي غير ذلك؟

وهذا منهج غير سليم، والمنهج الصحيح أن يضع المصلح إحدى عينيه على الغرب لينظر ماذا فعل، وعينه الأخرى على الشرق لينظر ماذا يصلح له، كما فعل مدحت باشا وخير الدين التونسي وأمثالهما، ومن حسن الحظ أن أكثر بلاد الشرق من هند وصين ويابان وبلاد عربية وإسلامية كلها مستعدة لقبول المدنية الحديثة. فالهند والصين مثلًا لهما حضارات قديمة وقد تقبلا المدنية الغربية وأفسحا لها صدرهما إلى أبعد حد، واليابان أصبحت وكأنها غربية، في الصناعات وفي العلم وفي السياسة، والعرب برهنوا في كثير من مواقفهم على أنهم على استعداد لقبول المدنية الجديدة والاستفادة منها بقدر الإمكان. وقديمًا استطاعوا أن يقتبسوا حضارة الفرس والروم واليونان ويأخذوا خير ما فيها؛ حتى أصبحت بغداد مسرحًا للحضارة المقتبسة من كل الحضارات.

على أن بعض الأوروبيين يرى أن الشرق لا يستطيع أن يتقبل مدنية الغرب، كالذي قاله اللورد كرومر عن مصر في كثير من تقاريره، وكالذي قاله شيخ من نزلاء الإنجليز في القدس: إن المسلمين ليس لهم حضارة باقية، وكل ما لهم الآن بقايا ممزقة وآثار بالية. ويقول أحد الفرنسيين: ليس في الحضارة العربية اليوم حياة؛ فإنها قد تحجرت في قرطبة، وعقمت ولم تعد تنتج شيئًا منذ خمسة قرون، وليس لمفكري العرب رغبة في إصلاح معين وهم الآن متهالكون على الآراء الغربية تهالكهم على البضائع الأوروبية، ويقول: إن للعرب مزايا عالية، ولكنها مظاهر خداعة، فأنت إذا تعاملت مع عربي شريف قدَّم لك القهوة ووضع جميع ممتلكاته تحت تصرفاتك، ولكنك تعجب لما فيه من عدم الاعتماد على النفس، وصفة التواكل التي ملكت عليه نفسه، وعجزه عن العزم وعن البدء بالعمل، وعدم تحديد غاية ينشدها، وعدم قدرته على الصبر والمثابرة.

فكل هذه الأقوال وأمثالها لا تمثل الواقع في نظري، وإنما بعث عليها الرغبة في بقاء الاستعمار والتشهير بالمستعمرين حتى يكون الاستعمار مقبولًا. والدليل على مرونة الشرقيين واستعدادهم لقبول المدنية الغربية تاريخهم في الخمسين سنة الأخيرة، كيف نهضوا وتغيروا وساروا في الطريق الصحيح، وهو من غير شك بدء يبشر بالخير، ولو كان الشرقيون كما يرى هؤلاء المستعمرون لرأينا الشرق جامدًا في مكانه، ولرأينا حاله اليوم كحاله منذ خمسين سنة.

غاية الأمر أن سرعة تقدم الشرق في مضمار الحضارة متوقفة على أمرين؛ أمر داخلي: هو إزالة ما في نفوسهم من مركب النقص واعتقادهم أنهم ناس كالغربيين، لا يقلون عنهم ميزة، ولا يقلون عنهم ذكاء، وأنهم يستطيعون أن يبلغوا أكثر مما بلغوا. وأمر خارجي: هو تعديل الغرب نظرته إليهم ومساعدته لهم من غير أن يستغلهم.

إن الشرق وخصوصًا العالم الإسلامي عاش قرونًا طويلة ينتج الأدب أكثر مما ينتج العلم، فنرى شعرًا كثيرًا، وأدبًا كثيرًا وعلمًا قليلًا، والنهضة الحديثة مبنية على العلم أكثر منها على الأدب، والعلم يطبع أهله بطابع الدقة والمنطق، والشرق فيه كنوز كثيرة مدفونة قابلة للاستغلال من بترول وذهب وفسفور وغير ذلك، وإذ كان الغربيون أعلم منا، أمكنهم أن يستغلوها من قديم، ويستفيدوا منها أكبر فائدة، بينما نحن أحق بها، إذ هي في ملكنا وتحت أعيننا، ولا ينقصنا إلا تقدمنا في العلم.

إن مشكلة الشرق خلقية وعقلية قبل أن تكون اجتماعية اقتصادية. فأخلاقهم ينقصها الحزم والصراحة، كما ينقصهم وجود زعماء نابغين حقًّا، وتسألني: على من تقع تبعة تأخر الشرق؟ أعلى الشرق نفسه أم على الغرب؟ والحق أنها تقع عليهما جميعًا، أما على الشرق فلجموده وخموله وتواكله وإمعانه في التقليد، وعدم إقباله على الابتكار، وسوء تربية بنيه. وأما على الغرب فلأنه استبد بالشرق واستغله، وسلبه حريته وراعى فيه مصلحته هو لا مصلحة الشرق نفسه. ومهما ذكرنا للشرق من عيوب وأبنَّا من عوائق؛ فإنه رغم عيوبه ورغم العوائق التي تعترضه قد تطور إلى خير مما كان، وهو بسبيله للتطور إلى ما هو خير من حاله الآن.

ولكن مما يؤسف له أن هذا التطور صحبه كثير من الحيرة والاضطراب؛ وترجع هذه الحيرة إلى أمور أهمها:

(١) اضطرابه بين القديم والجديد، أيهما خير؟ ويكثر هذا الاضطراب عند الناس المخضرمين الذين عاشوا في القديم والجديد، فلا هم عاشوا كأجدادهم في القديم فقط، ولا هم عاشوا كآبائهم في الجديد فقط.

(٢) أنهم رأوا الأوروبيين أنفسهم في حيرة من أمرهم.

وهنا يعرض سؤال لكل باحث وهو: ما مصير الشرق؟ وأجيب على ذلك بأن هناك عوامل كثيرة ستؤدي إلى تقدمه، منها: زيادة وعيه القومي حتى أصبح يفهم أساليب

الاستعمار ويقاومها، وزيادة تثقفه، وانقسام الأوروبيين على أنفسهم بين معسكرين كل معسكر يحاول أن يكون الشرق بجانبه، كل هذه العوامل تجعلنا نؤمل في الشرق كثيرًا، خصوصًا إذا زالت عقبة عقلية السياسيين الأوروبيين في نظرتهم إلى الشرق نظرة استعمار، والأمل كبير أن يحل محلهم ساسة جدد بعقلية جديدة، يسايرون الزمان ويعلمون أنه لا بد مع تغير الشرق من تغير الغرب، فإذا تم ذلك نظروا إلى الشرق نظرة جديدة ووضعوا أيديهم في أيدي الشرقيين، وتعاونوا جميعًا على العمل لخير الإنسانية، على أن ذلك لن يكون للشرق إلا بعد دروس قاسية، وجهاد طويل، وتضحيات كثيرة، ومحن تتطلب التحمل والصبر، وتجارب واسعة، وزعماء قادرين.

خاتمة

هناك قصة هندية تروى؛ أن ثلاثة رجال كانوا يفخرون بعلمهم وثقافاتهم، قرروا أن يرحلوا إلى بلاد بعيدة ليستفيدوا من شهاداتهم وعلمهم، وفيما هم سائرون وجدوا عظامًا متناثرة لأسد ميت. قال أحدهم: أنا أعرف كيف أضم هذه العظام بعضها إلى بعض، وقال الثاني: وأنا أستطيع أن أكسوها بالجلد واللحم، وقال الثالث: وأنا سأجعله يتنفس. وقام الأول فنفذ ما وعد به، ثم الثاني: وما أن نجح الثالث في أن يجعل الأسد يتنفس حتى قام الأسد وأكلهم جميعًا.

ترمز هذه القصة إلى الحضارة الأوروبية وزهو الأوروبيين بعلمهم، وكيف أنهم قاربوا نهايتهم بسبب غرورهم وسوء تصرفهم، حتى انقلب علمهم وانقلبت صناعاتهم وبالًا عليهم.

وتعجبني حكاية صينية قديمة، عن بستاني كان يسقي بستانه بإناء يملؤه مرارًا ويسقي به زرعه، فرآه رجل آخر وقال له: لماذا تتعب نفسك هذا التعب؟ ما عليك إلا أن تحفر قناة أو قناتين، أو تقيم شادوفًا تسقي به البستان. فأبى البستاني وقال: إني أحب أن أرى يداي تسقي كل زهرة من أزهار بستاني، وإذا أنا استخدمت الآلة للسقي جف قلبي وصار آلة مثلها.

قصتان تحذران من غرور العلم ومن الآلة، وقد رأينا بالفعل ما وصلت إليه أوروبا من غرور وتحجر قلب، حتى قامت فأحرقت نفسها ودمرت ما بنته بحربين لم يشهد العالم مثيلهما، وعاشت بعد الحربين في خوف دائم ونشرت الرعب في العالم كله.

إنني أرى أن العلم والصناعة ليسا سبب بلاء الحضارة الأوروبية، وأن الذي أهلك أوروبا إنما هو جشعها وطمعها وتجردها من العواطف الإنسانية، حتى إنهم

لم يستخدموا العلم والصناعة إلا في استعمار الدول الأخرى وكبت حرياتهم وسرقة ثرواتها.

المصانع ... عماد مدنية الغرب.

ولم يكن هذا أمرًا طبيعيًّا حتى يدوم، ففي الشرق حدث أن ثارت الشعوب ضد الاستعمار، ومدتهم هذه الثورة بأسباب الكفاح: نشاطًا بعد خمول، وقوة بعد ضعف، وأملًا بعد يأس.

وحدث عكس هذا في الغرب، فقد تنافست الدول في أيها يفوز بالمستعمرات، وأدى بها التنافس والطمع إلى حروب أتت على قوتها ونشاطها، وساعدت هذه الحروب لشرق على أن يستمر في كفاحه ضد هذه الدول المتحاربة، وباستمرار هذا الكفاح نال الشرق قوة وحيوية لم يعهدا فيه منذ أجيال طويلة.

وهكذا رأينا حضارة جديدة تقوم في الشرق، حضارة مبنية على العلم والصناعة كحضارة الغرب، وكل أملنا أن تظل حية قوية دون أن تصيبها تلك الأمراض التي أصابتها.